المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

مذكرة مادة

تاريخ الدعوة والدعاة

رقم المادة : ٢٦١

الفصل الثاني١٤٣٧ـ ١٤٣٨هـ

د نوال محمد سردار

الدعوة إلى الله تعالى من أجل شرائع الإسلام الحنيف الذي بعث به لبنة التمام ومسك الختام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الدعوة ضاربة بجذورها في عمق التاريخ البشري فليست كما يظن البعض ويعتقد أنها نشأت من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ،فهذا خلاف ما جاء في القرآن والسنة من قصص الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله تعالى لتبليغ دينه وشرائعه إلى العالمين ، ولإقامة منهج الله تعالى المنزل عليهم وسيادته على كل منهج بشري أو طاغوتي مخالف لمنهج الله تعالى ورسالته ، وهذه من كبرى حقائق الدعوة التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهان وعقول الدعاة إلى سبيل الله ورسله.

فتاريخ الدعوة كما بينه الله تعالى في القرآن - كانت أولى خطواته في مسيرة الحياة البشرية الطويلة في زمان نبي الله ورسوله نوح عليه السلام،...لأن البشرية ظلت على فطرتها التي خلقها الله تعالى عليها بالتوحيد لله تعالى منذ أول البشرية آدم عليه السلام، واستمسكت بها زمانا طويلاً كما ذكرت كتب القصص والتاريخ ما يقرب من ألف عام، حتى بزغ الشيطان بشركه وتلاعبه في العقول بأن يصرفها عن عبادة خالقها وموجدها سبحانه وتعالى، كما قال تعالى "إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذابَ أليم".

ثم توالت الرسالات والنبوات من بعده تترى لإعادة البشرية السالكة في طريق الشيطان والخسران إلى طريق النجاة والإيمان، والعبودية لله وحده المستحق لها بلا منازع أو شريك.

٢ - فالدعوة إذاً ...هي طريق الأنبياء والمرسلين ، وهي كذلك طريق الدعاة والمصلحين ومن ثم بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وأورثها الله تعالى لنا من بعده : "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"...الآيات" وهذه كذلك حقيقة أخرى لابد من الوقوف عليها وإدراكها ،حتى لا يتفلت أحد منها ومن أعبائها الثقيلة الموكلة إلينا : " قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة".

ومن ثم ورثت الأمة الإسلامية اليوم هذه التبعة الثقيلة، والرسالة الجليلة، وقامت جهود الدعاة هنا وهنالك تنادي بواجب الدعوة إلى الله تعالى ووجوب العودة إلى منهج الحق والإسلام الذي به صلاحنا في الدنيا والآخرة وبه هدايتنا وسعادتنا كذلك .

٣- فقام رجال ممن حملوا على عاتقهم حمل الرسالة وتبليغ الأمانة، بجهود كثيرة ومحاولات كبيرة ،لإعادة الأمة إلى الكتاب والسنة وتحكيم شريعة الله تعالى وجعلها منهج حياة ، يحكم الواقع البشري كما أراده الله تعالى لها، وكان قيام ذلك بشدة بعد توالى الحملات التترية والصليبية وكذلك الصهيونية على العالم الإسلامي بعدة غارات ومكائد وحروب، كان من نتائجها سقوط الخلافة الإسلامية بقيادة الدولة العثمانية ،وقيام العميل اليهودي مصطفى كمال أتاتورك بالوصول إلى مقاعد السيادة والحكم بعد قرار إلغاء الخلافة الإسلامية ومن ثم تم تمزيق العالم الإسلامي والعربي إلى دويلات ممزقة يفصل بينها حدود جغرافية مصطنعة، وما ذلك إلا لاحتواء العالم الإسلامي وإحكام السيطرة عليه وضربه في أي وقت بيد من حديد وتطويعه لمطامعهم ومكائدهم وأحقادهم..

التاريخ لغة:

هو تعريف بالوقت، و يعني "التوقيت"، أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها.

التاريخ اصطلاحاً:

هو فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان والزمان .

وفي تعريف ثان: هو تلك الأحداث التي وقعت في الماضي، والتي تقع في الحاضر، والتي يمكن أن تقع في المستقبل.

وفي تعريف آخر: هو سجل مسيرة البشرية، وهو المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية، أو هو ذلك السفر الخالد الذي يحمل بين دفتيه كل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مرت بها البشرية منذ قُدِّر للإنسان أن يترك آثاره على الأرض حتى تنتهي الدنيا وما عليها.

ولفظة التاريخ تطلق تارة على ماضي البشرية، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة ذلك الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعني بهذا الموضوع.

و تطلق كلمة "التأريخ" على دراسة الماضي، وكلمة "التاريخ" على الماضي نفسه .

و يعتبر العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون هو أول من قام باستخدام تعبير التاريخ وكان يقصد به السرد و التسجيل لتلك الأحداث دون وجود رابط بينهما

أي أن العلماء المسلمون كانوا أول من قام بوضع النواة الأساسية لهذا العلم بل أنهم يعتبرون هم أول من قام بدعوة العالم الغربي الأوروبي بطرق عير مباشرة إلى أهمية الالتفات إلى التاريخ و فلسفته .

تعريف تاريخ الدعوة :

هو فن يبحث فيه عن كيفية نشر الإسلام ، وإقناع الناس باتباعه ، ثم إثباتها بالتعيين والتوقيت لإطلاع الأمة عليها وإفادتهم منها .

ومن هنا نستطيع القول بأن هذا الفن الذي هو تاريخ الدعوة يعطينا التصور المطلوب عن كيفية نشر الإسلام ، مثبتة بتعيين حوادثها والأشخاص الذين شاركوا فيها ، مقرونة بالتوقيت ، مما يعين على الاستفادة الكاملة من هذه المادة ، كما سيأتي بعون الله تعالى .

مفهوم تاريخ الدعوة:

يُقصَد بتاريخ الدعوة: الوقوف على قصة الإيمان على ظهر الأرض، وتاريخ الصراع بين الحق والباطل، و مسارات الدعوة، وجهود الدعاة والمصلحين، والتيارات الفكرية السائدة في مجتمعٍ ما.

فيتضمَّن تاريخ الدعوة: مسار الدعوة، المنجزات، جهود الدعاة أو تقصيرهم وتخاذلهم، المناوِئون لدعوة الحق، كيد أعداء الإسلام.

موضوع تاريخ الدعوة :

يتناول دراسة نشأة الدعوة وتطورها من زمنه صلى الله عليه و سلم إلى يومنا هذا ، أو من زمن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا - على اختلاف اصطلاحي في تحديد الزمن-.

الهدف من دراسة تاريخ الدعوة

أولا - إبراز الملامح الأصيلة لفكرة الدعوة الإسلامية وأساليبها العملية .

ثانيا - التعرف على الطبيعة الذاتية لشخصية الرسالة من خلال شخصية الرسول

ثالثا - تلمس الأجواء الروحية والنفسية التي تعيش في داخل الداعية أمام التحدّيات التي تواجهه أو الصعوبات التي تعترضه، أو الأزمات التي تلاحقه ً.

وبذلك يمكننا تصحيح المسار في كثير من وسائلنا وخططنا العملية، التي نلمح في بعض جوانبها قوّة دفع للحاضر في اتجاه المستقبل، ولا سيما عندما تكون الدراسة للشخصية النبويّة في ملامحها الذاتية من الداخل، وفي ملامحها الرسالية من الخارج، وفي الخطوط العريضة لحركتها في الحياة المرتبطة بالرسالة..

المصدر الأصيل لدراسة تاريخ الدعوة:

لا بُدَّ في دراستنا لتاريخ الدعوة الإسلامية من الرجوع إلى القرآن الكريم كوثيقةٍ أساسية ثابتة، باعتباره الكتاب الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنَّ الله تكفّل بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان، وذلك كما جاء في قوله تعالى: {إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون} .

* كما أنَّ الكتاب المجيد يعتبر تاريخاً حيّاً للرسالة والرسول، فوضع التصورات والحلول للمشاكل الصعبة التي كانت تعترض المجتمع الإسلامي.

* تصوير القرآن الكريم للأحداث التي عاشها الإنسان في أزمنة النبوّات الأولى، وتحليله لها من خلال الخطوات المستقيمة أو المنحرفة، واعتبارها درساً يمكننا أن نتفهمه لنستفيد منه في ما نستقبل من أعمال وفي ما نواجهه من أحداث.

وهذا لا يعني إهمال كتب السيرة واستبعادها عن دائرة البحث والدراسة للتاريخ الإسلامي، لأنَّها تساعد في كثير من الحالات بل في أكثرها، على توضيح التفاصيل الدقيقة لبعض الصور والأحداث، ولكن كلّ ما نريد تقريره هو اعتبار القرآن أساساً للتصوّر الإسلامي للقضايا التي تحدّث عنها، بحيث تكون الأجواء القرآنية هي المصدر الأساس في طبيعة القضايا من حيث ملامحها العامة والخاصة. ففي الوقت الذي تثير فيه السيرة أمامنا الكثير من التفاصيل، نلتفت إلى القرآن لنفهم من خلاله ما توحيه الكلمة القرآنية من عمقٍ وشمول وامتداد الأجواء الروحية الداخلية والخارجية للأحداث. كما أنَّ هناك فرقاً كبيراً بين أن ينقل الله لنا أجواء الفكرة أو القصة، وبين أن يحدّثنا عنها كتّاب السيرة مهما كانت منزلتهم.

****

أهمية علم التاريخ في حياة المجتمعات الإنسانية:

١ :- يقوم علم التاريخ بعمل التصور الدقيق ، و الواضح عن العالم القديم ، و تجاربه التي مر بها الإنسان و بالتالي تعد تلك الدراسة التي يقدمها علم التاريخ هي من أحد أهم أبواب تجنب الأخطاء التي وقع بها الإنسان قديماً ، و التي كانت سبباً في جر الويلات و الدمار و الهلاك له .

٢ :- علم التاريخ هو عبارة عن تلك الدروس و العبر الماضية التي هي تفيد الإنسان في عملية تخطيطه للمستقبل ، حيث أن يكون عند معرفته سيرة الحضارات السابقة ودراسته لعوامل قيامها و ازدهارها ، و ماهي أسباب دمارها وزوالها يتمكن من اختصار العديد من التجارب والأخطاء التي وقع بها الإنسان في الماضي .

٣:- علم التاريخ هو أحد تلك العلوم الإنسانية الهامة في جعل الإنسان مرتبطاً بأجداده و بأصوله التي هو عبارة عن امتداد لها و التاريخ الإسلامي هو خير مثال على ذلك فعند الوقوف لدراسة السيرة الكريمة نستطيع استخلاص العبر و الدروس من حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة الأحداث و الوقائع و الغزوات التي وقعت في الزمن الإسلامي الأول ، و ما لذلك من مصادر أساسية من مصادر التشريع في الدين الإسلامي ، و هي الحديث النبوي الشريف ، و الذي هو عبارة عن تلك الأقوال و الأفعال التي قد أقر فعلها الرسول صلى الله عليه و سلم .

٤ :- علم التاريخ هو ذلك العلم القائم على حفظ التراث الخاص بالأمم و الحضارات ، حيث أن كثيراً من مظاهر التراث ، والمفاهيم الخاصة بحفظه و إبرازه بالشكل الذي ميز تلك الدولة أو المجتمع .

٥ :- يعد علم التاريخ هو أساس للقيام بتحليل الوثائق التاريخية ، و ذلك من أجل الوصول إلى نتائج سليمة وصحيحة تعمل على مساعدة العلماء ، و الباحثين إلى الوصول إلى العديد من من الاكتشافات التاريخية القديمة ، حيث تعد دراسة علم التاريخ من أحد أهم تلك الأساليب الموثوق بها و التي يعتمد عليها بالأخص من الآثار الخاصة بالحضارات في علوم الآثار و المستكشفون في الوصول اكشف الكثير من الآثار الخاصة بالحضارات الإنسانية القديمة وفك طلاسمها و ألغازها .

ثمرة الدعوة إلى الله ونتائجها

لا شك أن كل عمل من أعمال الخير لا بد أن تكون له آثار طيبة ونتائج حميدة ، والدعوة إلى الله من أجل أعمال الخير ، وهي وظيفة الرسل وأتباعهم ، فلها آثار حميدة منها :

- امتثال أمر الله تعالى بقوله : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ وبقوله : وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ قوله : فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ . والأمر للرسول صلى الله عليه وسلم أمر لأمته ما لم يدل دليل على اختصاصه به ، فكما أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالدعوة فأمته مأمورة بذلك ، بل قد أمرها الله بذلك في قوله : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ .

- ومنها الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي فأتباع الرسول يدعون إلى الله على بصيرة كما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الله على بصيرة ، ومن لم يدع كان اتباعه ناقصا ، ومنها : تبليغ دين الله إلى الناس وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال : " بلغوا عني ولو آية ". ومن لم يبلغ ما علمه من دين الله كان كاتما ، وقد توعد الله الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى باللعنة .
- ومنها هداية من أراد الله هدايته بسبب الدعوة وحصول الأجر العظيم لما دعاه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا .

ومن لم يقبل الدعوة قامت عليه الحجة واستحق القتال .

****

مراحل تاريخ الدعوة عبر العصور و الأزمان

حينما نتكلم عن تاريخ الدعوة نجد أن هناك أوجه شبه وترابط في الحركة الدعوية وملامحها ونتائجها على مدى العصور والأزمان، ومن هنا قسم العلماء تاريخ الدعوة إلى أربعة عهود:

١. الدعوة قبل الإسلام.

٢. الدعوة زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وزمن الخلفاء الراشدين.

٣. الدعوة زمن الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

٤. الدعوة في العصر الحديث.

المرحلة الأولى _ سير الدعوة قبل الإسلام :

ويبدأ تاريخها بدعوة نوح عليه السلام ، أول رسول حدثنا القرآن عن دعوته ورسالته ، وتنتهي برسالة عيسى عليه السلام.

قال سبحانه:

{ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.. }

" و سيأتي الحديث عن دعوة سيدنا نوح عند حديثنا عن دعوة أولي العزم من الرسل " .

- **ثم يأتي "هود" عليه السلام ، فيقوم بدعوة قومه كما فعل نوح عليه السلام ، قال تعالى:**

{ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون} .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من أسلوب دعوته ، وذكر بعضاً من أقواله لقومه ، فقال سبحانه:

{ قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين، قال يا قوم ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين... } .

فما كان من قومه إلا الإعراض والتكذيب ، قال تعالى:

{ قالوا يا هودُ ما جِئْتَنا ببيِّنةٍ ، وما نَحْنُ بتاركي آلهتِنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إنْ نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال: إني أُشهِدُ الله واشهدوا أني برئ مما تشركون من دُونِه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون.. }

ولما اشتدت به الحال دعا ربه فقال:{ قال رب انصرني بما كَذَّبون} ، فاستجاب الله له وقال: { قال عما قليل لَيُصْبِحُنَّ نادمين} ، ونفذ وعيد الله بهم ، قال تعالى: { وأما عادٌ ، فأُهلِكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية ، سَخَّرها عليهم سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حُسوماً ، فَتَرى القوم فيها صَرْعى كأنهم أعجاز نَخْل خاوية ، فهل تَرى لهم من باقية} .

- **ثم جاء " صالح " عليه السلام بدعوته إلى قومه :**

قال تعالى: { وإلى ثَمودَ أخاهم صالحاً قال: يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيرُه ، هو أنشأكم من الأرض واستَعْمرَكُم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربي قريبٌ مجيب } .

فأعرضوا عن دعوته ، وجادلوه فيها بالباطل ، قال تعالى: { قالوا يا صالحُ قد كنتَ فِيْنا مَرْجواً قبل هذا ، أَتَنْهانا أن نعبد ما يَعْبدُ آباؤنا ، وإننا لفي شكٍ مما تدعونا إليه مريب } .

حتى طالبوه بالمعجزة وهي إخراج الناقة من الصخر ، فأيده الله بها ، ولكن ما زادهم ذلك إلا إعراضاً وتكذيباً ، وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم.

قال تعالى :{ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها ، فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب} .

ولم يكتفوا بذلك بل قالوا: { ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين } ، فجاءهم عذاب الله فأصبحوا في ديارهم جاثمين :

قال تعالى: { فلمّا جاء أمُرنا نَجَّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خِزْي يَوْمِئذ، إن ربَّكَ هو القوي العزيز ، وأخذَ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يَغْنَوا فيها ، ألا إن ثمودَ كفروا ربهم ، ألا بُعدا لثمود} .

- **ثم جاء " إبراهيم " عليه السلام قومه بمثل ما جاء به الرسل السابقون :**

قال تعالى : { واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون.. } .

وعرض القرآن كثيراً من حواره مع أبيه وقومه ، وبين جانباً من أسلوب دعوته، وكيده لأصنام قومه ، كما عرض تكذيب قومه له وإيذاءهم له ، وتهديدهم له بالتحريق ،وفعلوا ،ولكن الله نجاه منهم .

قال تعالى: { ولقد آتينا إبراهيم رُشْدَهُ من قَبْلُ وكُنّا به عالمِين * إذْ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون }.

ومَرّ إبراهيم عليه السلام بابتلاءات عظيمة فما كان منه إلا الثبات والصدق ، وأمره الله ببناء الكعبة ، ولم تذكر الآيات القرآنية وفاة إبراهيم عليه السلام ، ولا عاقبة قومه ، وإنما ركزت على سيرته القدوة ، وابتلاءاته وصبره ، وإكرام الله له بنجاته واستجابة دعائه.

- **ثم جاء" لوط" عليه السلام قومه :**

فدعاهم إلى عبادة الله ، ونهاهم عن المعاصي والفواحش التي انتشرت بينهم ، فما كان منهم إلا التكذيب ، وهموا بإخراجه من قريته ، متحدين أن يأتيهم بعذاب ، فأنجاه الله منهم ، وأمطر على قومه حجارة فقضت عليهم .

قال تعالى: { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } .

- **ثم جاءت دعوة " يوسف " عليه السلام :**

و لم يحدثنا القرآن الكريم عن تفصيلاتها ، وإنما اكتفى بالإشارة إليه بمثل قوله تعالى : { وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ} .

وإنما ركز القرآن الكريم على سيرة يوسف عليه السلام الخاصة ، وبيان ما لاقاه من حسد إخوته وكيدهم له ، وما جَرّ عليه ذلك من ابتلاءات في شبابه ، فكان مثال التقوى والصبر ، وذلك لتكون حياته درساً وعبرة ، كما نرى في سورة "يوسف" عليه السلام التي سميت باسمه ، والتي ختمها الله عز وجل بقوله:

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } .

- **ثم جاءت دعوة "شعيب عليه السلام" :**

فدعا قومه إلى عبادة الله وترك المنكرات والإفساد في الأرض ، قال تعالى:

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }*

فما زادهم إلا إصراراً على باطلهم ، وهددوه بالإخراج فأخذهم عذاب يوم الظلة ، قال تعالى:

{ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ* فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ.... } .

ونَجّى الله شعيباً والذين أمنوا معه ، فقال :

{ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدا لمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } .

- **ثم أرسل الله موسى" عليه السلام :**

وأنزل عليه التوراة ، بعد أن نشأ في بيت فرعون ، فأرسله الله إلى بني إسرائيل ، وشد عضده بأخيه" هارون " عليه السلام ، قال تعالى:

كما أمرهما الله عز وجل بالذهاب إلى (فرعون) ودعوته فقال:

{ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لهُ قَوْلا ليِّنا لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .....الآيات.. } .

ومَرّ موسى عليه السلام بابتلاءات كثيرة ، ولاقى من قومه ما لاقى ، فعبدوا العجل ، وآذوه بالكلام فيه ، وبطلبهم رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بذلك ، ثم أحياهم الله ، قال تعالى:

{ وإذ قُلْتُمِ يا موسى لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتى نَرى الله جهرةً فَأخَذَتْكُم الصاعقةُ وأنْتم تَنْظُرون*ثم بَعَثْناكم من بعد موتكم لعلَّكم تَشكرون..}

وهكذا حتى قضى هارون وموسى عليهما السلام ، بعد أن حملا الرسالة وادَّيا الأمانة ، قال تعالى:

{ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون ، ونَجَّيناهما وقومَهما من الكَرْب العظيم ، ونَصَرنْاهم فكانوا هم الغالبين ، وآتيناهما الكتابَ الُمسْتَبين ، وهَدَيْناهما الصراطَ المستقيم ، وتَرَكْنا عليهما في الآخرين ، سَلامٌ على موسى وهارون ، إنّا كذلك نَجْزِي المُحسِنين ، إنَّهما من عبادنا المؤمنين } .

- **ثم توالت الأنبياء على بني إسرائيل إلى أن جاء داود عليه السلام. فقام" داود "عليه السلام بدعوته :**

وآتاه الله" الزبور" قال تعالى:{ وآتيْنا داودَ زَبوراً}

ولم يذكر القرآن تفصيلا لدعوته وموقف قومه منه.

- **ثم جاء ولده" سليمان" عليه السلام :**

وقام بدعوته ، إلا أنه لم يذكر القرآن الكريم أيضا لنا شيئاً عن دعوته ، وعن موقف قومه منه ، وإنما ذكر بعض الخصائص والمعجزات التي أيده الله بها ، قال تعالى:

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ* يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ...} . وتوالت الأنبياء فجاء" أيوب ويونس" عليهما السلام.

- **ثم جاء عيسى عليه السلام" :**

وآتاه الله الإنجيل ، فدعا بني إسرائيل إلى التوحيد ، قال تعالى:

{ وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى بن مريم مُصدِّقا لما بين يديه من التوراة ، وهدىً وموعظةً للمتقين} .

وقد عرض القرآن الكريم جانباً من دعوة عيسى عليه السلام ، وذكر بعض حواراته مع قومه ، فقال تعالى: { ولما جاء عيسى بالبَيِّنات قال : قد جئتكم بالحِكْمة ، ولأبَيِّنَ لكم بَعْضَ الذي تَختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون* إن الله هو ربّي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مُستقيم* فاخْتَلَفَ الأحزابُ من بَيْنِهم * فَوَيْلٌ للذين ظلموا من عذابِ يومٍ أليم } .

واستمر عيسى عليه السلام في دعوته حتى كادوا له ومكروا به ، فأنجاه الله ورفعه إليه ، قال تعالى :

{ ومكَروا ومَكَر اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين* إِذْ قال الله يا عيسى إني مُتَوفّيك ورافِعكُ إليّ ومُطَهِّرُكَ من الذين كفروا ، وجاعلُ الذين اتَّبعوك فوقَ الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلَيَّ مَرْجِعُكم فأحْكمُ بينكم فيما كنتم فيه تَخْتلفون } .

وكانت رسالة عيسى عليه السلام آخر رسالة ، وكان موكبه آخر موكب من مواكب الدعوة إلى الله قبل بعثة رسولنا صلى الله عليه وسلم وعلى جميع رسله وأنبيائه أجمعين .

وبهذا ينتهي العرض السريع المجمل لسير الدعوة إلى الله قبل الإسلام ، على يد الرسل عليهم الصلاة والسلام ، الذين حدثنا القرآن عنهم وعن دعوتهم ، وختم حديثه عنهم في سورة الأنعام بقوله: { أولئك الذين هَدى الله ، فَبِهُداهم اقْتَدِه.. } .

و يمكن للمتتبع لسير الدعوة قبل الإسلام، والناظر في سيرة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعا أن يستخلص بعض الملامح العامة لهذه المرحلة من مراحل الدعوة فنقول:

١ - اتفق الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- على الدعوة إلى الملة الواحدة القائمة على توحيد الله -عز وجل-، ومحاربة الكفر والشرك، والأمر بالطاعات، والنهي عن المحرمات، فكلهم يدعون إلى الله -عز وجل-، ويرمون في دعوتهم عن قوس واحدة، قال تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) .

٢ - كانت تلك الرسالات السابقة محلية إقليمية، فكان كل رسول يبعث إلى قوم معينين، وكانت رسالاتهم تعالج حاجات عصورهم، وتلبي متطلبات مجتمعاتهم، قال تعالى: (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ) .

٣ - جرت سنة الله -عز وجل- في الأمم السابقة بنجاة المؤمنين، وتدمير الكافرين، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ).

٤ - جرت سنة الله -عز وجل- أن يؤيد رسله الكرام بخوارق ومعجزات ليؤمن من يؤمن، وتقام الحجة على الكافرين والمنكرين.

٥ - كان الخط البياني لقبول الدعوة في الرسالات السابقة متأرجحا بين الصعود والهبوط، فلا استجابة مطلقة، ولا إعراض دائم، ولو شاء الله لجعل الناس جميعا يستجيبون لدعوته، ولكن شاءت حكمته أن يستمر الابتلاء في هذه الحياة للدعاة والمدعوين، ليميز الخبيث من الطيب، ويبوئ من شاء الجنة، ويملأ بمن شاء جهنم... قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

المرحلة الثانية - الدعوة زمن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وزمن خلفائه الراشدين:

وتنقسم هذه المرحلة إلى قسمين:

أ- القسم الأول : الدعوة زمن الرسول صلى الله عليه و سلم .

ب- القسم الثاني: الدعوة زمن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

١- الدعوة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم :

بدأت الدعوة الإسلامية منذ بعثته صلى الله عليه وسلم ، حيث جاءه الوحي ، وأنزل الله عليه قوله: { يا أيها المُدَّثرِّ* قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَّبكَ فكَبِّر* وثيابَك فَطَهِّر * والرُجْزَ فاهجُر* ولاَ تُمُنْ تَسْتَكثِر * ولربِّك فاصبِر } .

" و سوف يأتي الحديث عنها مفصلا في دعوات أولي العزم من الرسل ".

٢ - الدعوة زمن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم:

امتدت الخلافة الراشدة ثلاثين عاماً من وفاته صلى الله عليه وسلم عام/١٠/هـ إلى مقتل علي رضي الله عليه وسلم عام /٤٠/هـ.

فقد بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة إِثْر وفاةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت خلافته عامين وثلاثة أشهر وثمانية أيام.

ثم خلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وطالت خلافته عشر سنين وستة أشهر ونصف شهر.

ثم خلفه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وطالت خلافته اثني عشر عاماً كاملة غير عشرة أيام .

ثم خلفه علي بن أبي طالب t ، وطالت خلافته خمس سنوات تقريباً.

وقد جاء في الحديث الشريف عن سفينةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خِلافةُ النبوة ثلاثون سنة ، ثم يُؤتي الله الملك ، أو ملكه من يشاء" .

وقد استمرت حركة الدعوة الإسلامية في زمن الخلفاء الراشدين تبليغا للإسلام ، وتعليما له ، وتطبيقا لأحكامه في حياة المسلمين ... حتى توسعت دائرة انتشار الإسلام توسعاً كبيراً ، وامتدت رقعة الدولة

الإسلامية في عصور الخلفاء الأربعة ، ولاسيما في عهد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وتوقفت قليلاً في عهد علي رضي الله عنه، حيث شُغِلَ المسلمون بالأحداث الداخلية والفتن.

* وقد رافَق هذا الامتدادَ الجغرافي للدعوة الإسلامية في هذا العهد الامتدادُ الفكري، فدخل معظم أصحاب البلاد المفتوحة في الإسلام ، ورأوا فيه خير منقذ لهم مما هم فيه ، وأفضل مصلح لأحوالهم .

ولم تتوقف الحركة الفكرية الدعوية في هذا العهد يوماً ما ، وإنما نشطت فيه حركة العلم والتعليم ، واجتهد المسلمون في هذه المرحلة في الحفاظ على وحدتهم الثقافية والروحية التي كانت دعامة قوية لهذه الفتوحات

وكان من ابرز جهودهم الفكرية في هذه المرحلة :

أولا - حفاظهم على القرآن الكريم :

أ - جمع القرآن الكريم في عهد " أبي بكر" رضي الله عنه .

ب - - توحيد المصاحف في عهد " عثمان" رضي الله عنه .

ثانيا - حرصُهم على نشر العلم بين المسلمين ، ومحاربتهم الجهل بالإسلام :

فقد نَهلَ المسلمون الجدد من الصحابة الكرام الذين انتشروا في بقاع الأرض ، ولاسيما في عهد" عثمان"رضي الله عنه، تعاليمَ دينهم ، وانكبوا على حفظ كتاب ربهم ، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه الفترة التاريخية من تاريخ الدعوة أهم الفترات بعد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت حَلَقة الوصل بينه وبين العهود التالية ....

لذا ، حرص أعداء الإسلام كثيراً على تشويهها ، واستغلال الأحداث والفتن التي حدثت فيها ، للطعن فيها ، حتى وصل الأمر بكثير من المستشرقين في القرن التاسع عشر إلى أن يفسر هذه الفتوحات الإسلامية تفسيراً مادياً ، ووصف الحروب الإسلامية بأنها حروب اقتصادية كان وراءها البحث عن العيش ووسائله ، إلى غير ذلك من أوصاف تابعهم عليها كثير من المستغربين ...

المرحلة الثالثة :

الدعوة في العصر الأموي و العباسي و العثماني وسوف يكون الحديث عنه موجزا سنبرز أهم الأحداث الدعوية فيه:

أولا – في العهد الأموي :

• استمرار الفتوحات الإسلامية فنتج عن ذلك حركة علمية في كل بلد نزلوا فيها، وتكونت مدارس العلم وحلقاته في كل مكان.

ولم تكن الدعوة الإسلامية في هذا العهد محصورة بأناس معينين ولا دعاة مخصوصين، وإنما كان كل فرد في الأمة تقريبا يشعر بواجب الدعوة عليه، فيعمل على نشر الإسلام وتمكينه في الأرض.

كما عظمت في هذا العهد العناية بالحديث النبوي رواية ودراسة، وجمعا وتدوينا، ورحلة في طلبه، حتى حفظ المسلمون بذلك المصدرين الأساسيين للشريعة الكتاب والسنة، إلى غير ذلك من أنشطة علمية وفكرية.

ثانيا - الدعوة في العهد العباسي:

وقد انقسم إلى عصرين عصر قوة، وعصر ضعف، إلا أن هذا الضعف على المستوى الرسمي لم يؤثر كثيرا على الدعوة في المستوى الشعبي، حيث قام العلماء والدعاة بواجبهم، فلم تنقطع حلقات العلم والتعليم والوعظ، ولم تتوقف حركة الرواية والتصنيف، وكان إقبال الناس على العلماء كبيرا، حيث قيض الله لهم في هذا العهد أمثال الأئمة الأربعة، وابن المبارك وسفيان الثوري -رحمهم الله تعالى- وغيرهم كثير ممن نشطت على أيديهم حركة الفقه والاستنباط التي استوعبت حياة المسلمين ومتطلبات عصرهم المتطورة.

ثالثا - الدعوة في العهد العثماني:

تابعت الخلافة العثمانية مسيرة الدعوة الإسلامية، وكانت قوية في مبدئها، ثم دب فيها الضعف بضعف الخلافة الإسلامية.

ولا يعني هذا الضعف توقف الدعوة كليا في الجانب الفكري والعلمي، فقد كان للعثمانيين جهودهم الكبيرة في مجالات العلم والتعليم والاقتصاد... وظهر فيهم عدد كبير من العلماء في مختلف العلوم الإسلامية تابعوا مسيرة الحركة الدعوية الفكرية، وها هي المكتبات الإسلامية الكثيرة في تركيا وغيرها حافلة بتراثهم وتصنيفاتهم.

المرحلة الرابعة - الدعوة في العصر الحديث:

ويبدأ العصر الحديث من سقوط الخلافة علم (١٩٢٤م) إلى يومنا هذا ...

تصعب الكتابة في تاريخ الدعوة في العصر الحديث نظرا لتشتت المعلومات في ذلك ، وتعدد الميادين والمجالات الدعوية من جهة ، ونظرا لعدم توفر دراسات متخصصة شاملة لهذا العصر من جهة أخرى .

وذلك أن تاريخ الدعوة يشمل تاريخ كل حركة دعوية: فردية أو جماعية ، رسمية أو شعبية ، تبليغية أو تعليمية ، أو تطبيقية ، سواء كانت هذه الحركة في بلاد العرب أو بلاد العجم من بلاد المسلمين ، أو كانت نشاطات دعوية في البلاد الإسلامية وغيرها.. وهذا ميدان فسيحٌ واسع تصعب الإحاطة به.

فقد تناول بعض الكاتبين في تاريخ الدعوة تاريخ داعية من دعاة هذا العصر ، كما كتب بعضهم عن الإمام حسن البنا ، والمودودي وغيرهما من الدعاة الموزعين في العالم الإسلامي ، وتناول آخرون تاريخ حركةٍ من الحركات الدعوية ، أو جماعة من الجماعات الإسلامية ، كما كتب بعضهم عن حركة الإخوان المسلمين ، وحركة الجماعة الإسلامية وغيرها من الحركات الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي بوجه عام ، كما فعل بعضهم في الكتابة عن الدعوة الإسلامية وتطورها في شبه القارة الهندية ، وآخرون عن الدعوة الإسلامية المعاصرة في القرن الإفريقي وغيرهم كثير...

ولا يمكن لكتابة من هذه الكتابات السابقة أن ترسم صورة كاملة لحركة الدعوة في هذا العصر ، وإنما يمكن لمجموعها متكاملة أن تحقق شيئاً من ذلك.

لذا نكتفي بالوقوف على بعض الملامح العامة للدعوة في هذا العصر ، والإشارة إلى بعض المعالم البارزة والدروس والعبر من واقع الحركة الدعوية فيه.

ومن هذه الملامح والمعالم والدروس:

١- لم تتوقف حركة الدعوة الإسلامية في هذا العصر ، سواء على نطاق التبليغ والنشر للإسلام ، أو على نطاق تعليمه وتبيينه للناس ، أو على نطاق تطبيقه في الحياة الشخصية والحياة العامة ... وذلك على الرغم من الصدمة الكبرى التي أصيبت بها الدعوة الإسلامية بسقوط الخلافة الإسلامية على أيدي أعداء المسلمين ، وتوزع الأمة بعدها إلى دويلات متعددة ، وتداعي الأمم الاستعمارية عليها... وإن كانت هذه الحركة تتفاوت قوةً وضعفاً من مكان إلى مكان ، ومن زمن إلى آخر .

فإن الله عز وجل الذي وعد بحفظ هذا القرآن ، وإظهار هذا الدين ، هيأ له دعاةً عاملين ، وعلماءً ربانيين قاموا بواجب الدعوة ، فحفظوا على الناس دينهم ، وأيقظوا كثيراً من الغافلين من سباتهم ، ولاقوا في سبيل ذلك ما لاقوا من عذاب وتشتيت وتقتيل ، فصبروا وصابروا ....

٢- تنوعت أشكال الحركة الدعوية في هذا العصر تنوعاً كبيراً ، فكان منها الحركات الفردية التي قامت على أيدي العلماء الربانيين ، والدعاة العاملين المنتشرين هنا وهناك ،كما كان منها الحركات الجماعية التي اتخذت شكل المنظمات والجماعات التنظيمية ، وتنوعت هذه المنظمات والجماعات إلى منظماتٍ شعبيةٍ أسَّسها أفراد عاملون من أبناء هذه الأمة ، ومنظماتٍ رسمية انبثقت عن الدول الإسلامية القائمة ، ولاسيما التي لم يدخل إلى بلادها الاستعمار مباشرة ، فقد ساهمت هذه الحركات جميعها في تسيير موكب الدعوة هنا وهناك ، حتى لا يكاد يخلو قط من أقطار المسلمين من مثل هذه الحركات...

٣- كما تنوعت مناهج وأساليب هذه الحركات الدعوية ، فكان منها دعوات شاملة وأخرى جزئية ، كما كان منها المنظمات التربوية و التبليغية والفكرية والسياسية وما إلى ذلك .... مما جعل بعض هذه الجماعات يركز على جانب أكثر من غيره ، كما جعل كل جماعة تختار من المناهج والأساليب الدعوية ما يتناسب مع طبيعتها وأهدافها ... وجعل الناس المهتمين بالدعوة يتوزعون بين هذه الجماعات كل بحسب اهتماماته واستعداداته وإمكاناته من جهة ، وتبعا للظروف العامة والخاصة التي أحاطت بهذه الجماعات والمنظمات من جهة أخرى .

وقد كان لهذا التنوع والتعدد بعض الإيجابيات في العمل الإسلامي ، ولم يخل الأمر كذلك من كثير من السلبيات.

٤- وقعت كثير من هذه الحركات الدعوية: الفردية والجماعية في أخطاء عملية عديدة ، وبأسباب متنوعة: داخلية وخارجية ، أَضرَّت بالعمل الإسلامي كثيراً ، وأفقدت بعض الحركات والجماعات حيويَّتها ومصداقيتها عند كثير من الناس ، وجعلتها تعيش في عزلة نسبية عن ميادينها الحقيقية ، و كان من أبرز هذه الأخطاء : التوقع على الذات ، والتعجل بالخطوات ، والانفراد بالقرارات العامة الهامة ، والتجاوب مع الاستفزازات ، والوقوع في شباك الاحتواءات ، وما إلى ذلك من أخطاء لا يزال كثير منها يتكرر في ساحات العمل الإسلامي ون أن يفيد العاملون من تجارب غيرهم ، ويتجنبوا أخطاءهم ...

٥- كما أصيب كثير من العاملين في صفوف الدعوة على مختلف مستوياتهم بالمهلكات الثلاث أو بعضها ، التي لا يُجدي معها قول ولا حركة ، وتُعدُّ من أخطر الأمراض الجماعية والاجتماعية ، وقد حذر منها رسول الله r بأساليب متعددة ، فقال:

" ... حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً ، وهَوى مُتَّبعاً ، ودُنيا مُؤْثَرة ، وإعجابَ كل ذي رَأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوامّ..

٦- واجهت هذه الحركات الدعوية: الفردية والجماعية على مختلف أشكالها تحدياتٍ صعبةً وهجماتٍ شرسةً من قبل الأعداء المتربصين بها ، الذين عملوا على إسقاط الخلافة وخططوا للقضاء على الإسلام والمسلمين ، فسادَ الأمةَ الإسلامية أشكالٌ من الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي والفكري والاجتماعي ، مما وسَّع على العمل الدعوي المشكلة ، وعدَّد أمامه الجبهات ، وأدخل الحركات الإسلامية في صراعات متعددة لا قِبَلَ لها بها ، وذلك لغفلة من الدعاة عن تخطيط أعدائهم ، وضعفٍ في استعداداتهم وتفرق صَفّهم ، مما أضعف أثر دعوتهم في حياة الأمة ، وجّرَّهم إلى مِحَنٍ متوالية لا حصر لها...

٧- على الرغم من صعوبة التحديات التي واجهتها الدعوة في هذا العصر ، وتعدد الجبهات أمامها من جهة ، وعلى الرغم من أخطاء كثير من الدعاة والمصلحين من جهة أخرى ، خَلَّف العمل الإسلامي نتائج هامة ، وآثاراً كبيرة على بعض المستويات وفي مختلف الميادين ، تصلح أساساً قويا للنهوض بالأمة الإسلامية ، وتصحيح مسار الحركة الدعوة ، إذا ما دُرِسَت هذه التجارب دراسة وافية ، وتعاون العاملون والمصلحون فيما بينهم على تصحيح الأخطاء ، وتطوير أساليب العمل بما يتناسب وعصرهم ، ويوازن بين إمكاناتهم وواجباتهم...

٨- استطاع الأعداء غزوَ الأمة في عُقر دارها عن طريقين أساسيين:

أ- عن طريق إفساد نخبة من أبنائها الذي وفدوا ، أو ابتعثوا إلى الغرب أو الشرق ، فحمل كثير من هؤلاء سموم أعدائهم ، وشبهات المستشرقين حول إسلامهم ، وعادوا وقد صُنِعُوا على أعينهم ليكونوا في مراكز القيادة والتوجيه ...

ب – وعن طريق ركائز محلّية ربّاها الاستعمار في بلاد المسلمين تربية خاصة ، ليكونوا خلفا لهم بعد جلائهم أو إخراجهم ، وخططوا لهم ، وتابعوا دعمهم وتأييدهم ، وتبادلوا المصالح فيما بينهم ...

ففعل هؤلاء وأولئك في بلاد المسلمين ما لم يفعله المستعمرون الأصليون ، والأعداء المكشوفون.... ولاقت الدعوة الإسلامية في مواجهة هؤلاء ما لم تلقه في مواجهة كثير من المستعمرين أيام استعمارهم!

٩- ومع كل ذلك ، فإن مشكلة الدعوة الإسلامية اليوم مشكلةٌ داخلية ذاتية ، قبل أن تكون مشكلة خارجية ، لأن عداء غير المسلمين للإسلام سنة ثابتة .

١٠- إن حاضر العالم الإسلامي اليوم يحمل بين طيّاته بشائر النصر الإلهي للدعوة الإسلامية ، وذلك إذا وعي المسلمون واقعهم ، وعملوا وصبروا وصابروا في طريق دعوتهم.. ولعل أهم هذه الخطوط التي يمكن أن تعين في محاولة استخلاص صورة مبشرة بالمستقبل ، ما حَدَّده الأستاذ : محمد قطب – حفظه الله – في كتابه : " رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر" . وهو:

أ- انهيار الشيوعية .

ب – عوامل التفسّخ في المجتمعات المعاصرة.

ج – الكتل المتصارعة داخل المعسكر الجاهلي .

د - الصحوة الإسلامية.

وإذا كانت تلك الخطوط السابقة مبشراتٍ بنصر الدعوة الإسلامية ، فإن في كتاب الله العزيز الحكيم ، وسنة نبيه الكريم وعوداً صادقة مشروطةً لا يمكن أن تتخلف أبداً ، من ذلك قوله تعالى : { هو الذي أَرسَلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحَقِّ ، ليُظْهِرَه على الدين كُلِّهِ ولو كَرِهَ المشركون }

وقوله تعالى :{ هو الذي أَرسَلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحَقِّ ، ليُظْهِرَه على الدين كُلِّهِ وكفى بالله شهيداً} .

وقوله تعالى: { ... وإِنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا ، لا يَضُرُكُم كيدُهم شيئاً ، إن الله بما يَعْملون محيط} .

وجاء في الحديث الشريف:

" لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهودَ ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم ، يا عبدالله ، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ، إلا الغَرْقد ، فإنه من شجر اليهود " .

وجاء في الحديث الآخر:

" تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاضّاً ، فيكون ما شاء أن يكون ، ثم يرفعها ، ثم تكون مُلكاً جَبْرية ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت...

إلى غير ذلك من ملامح ومعالم ودروس وعبر يستخلصها المتتبع لتاريخ الدعوة في هذا العصر .

****

خصائص الرسل و بيان صفاتهم عليهم السلام، وأن الإيمان بهم من أركان الإيمان

الإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان، قال سبحانه: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ} [البقرة: ٢٨٥] .

فدلَّت الآية على وجوب الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام دون تفريق، فلا نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض كحال اليهود والنصارى.

«وقال صلى الله عليه وسلم عن الإيمان: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»

وإن ما تعانيه الدول - التي يسمونها دولا متقدمة ومتحضرة - من أنواع الاضطراب والهموم والشقاء والتفكك، إنما هو بسبب الإعراض عن الرسالة.

معنى الإيمان بالرسل:

هو التصديق الجازم بأن الله بعث في كل أمة رسولا منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الرسل كلهم صادقون مصدّقون، أتقياء أمناء، هداة مهتدون، وأنهم بلّغوا جميع ما أرسلهم الله به، فلم يكتموا ولم يغيّروا، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفا ولم ينقصوه، كما قال سبحانه: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} .

وإن جميع الأنبياء كلهم كانوا على الحق المبين، وأنه قد اتفقت دعوتهم إلى عقيدة التوحيد، كما قال سبحانه {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} .

وقد تختلف شرائع الأنبياء في الفروع من الحلال والحرام، كما قال الله تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}.

تعريف النبي والرسول:

النبي لغة : المُخبر، مشتق من النبأ وهو الخبر، فالنبي مُخبر عن الله تعالى. أو مشتق من النَّبْوَة وهي ما ارتفع من الأرض، فالنبيّ أشرف الخلق وأرفعهم منزلة.

النبيّ اصطلاحا : فهو إنسان حرّ، ذكر، اختاره الله وخصّه بتبليغ الوحي إليه.

والرسول لغةً : المتابع لأخبار من أرسله.

أما اصطلاحا : فهو إنسان حر ذكر، نبّأه الله تعالى بشرع، وأمره بتبليغه إلى قوم مخالفين.

الفرق بينهما : فإن الرسول أخص من النبي، فكل رسولٍ نبي، وليس كل نبي رسولا، فالرسول يؤمر بتبليغ الشرع إلى من خالف دين الله، أو لا يعلم دين الله، وأما النبي فيبعث بالدعوة لشرع من قبله.

صفات الرسل وآياتهم:

أولًا: البشرية:

قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)]؛ ولذلك لما أنكر المشركون على المرسلين دعوتهم بأنهم بشر يريدون بهم الإضلال، أجابتهم الرسل بالإقرار أنهم بشر، لكنهم فُضِّلوا بالوحي؛ قال تعالى: (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) .

وقد استكبر كثير من المشركين على رسلهم، وكفروا بهم، وكان حجتهم في ذلك أنهم - يعني الرسل - بشرٌ، واقترحوا أن يرسل الله ملائكة، وقد جاء ذكر ذلك مصرحًا به في غير موضع من القرآن؛ فمن ذلك: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا) ، وقال تعالى: (فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ):،

وقال تعالى: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا) .

- **ولكن عندما نتأمل الأمر نجد أن الحكمة من إرسال الرسل بشرًا وأنهم لم يكونوا ملائكة تتلخص فيما يلي:**

(١) أن الناس لا يقدرون على رؤية الملك في صورته الحقيقة؛ فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم - على ما أعطاه الله من القوة الجسمية والنفسية وهيأه لهذه المهمة - كان يعالج من التنزيل شدة، ولما جاءه الوحي بغار حراء أول مرة، عاد إلى بيته يرجف وهو يقول: ((زمِّلوني زمِّلوني))؛ فرؤية الملائكة ليست بالأمر الهين؛ ولذلك إذا جاءهم ملك فإنه سيكون في صورة رجل، ولا يأتيهم في

صورته الملائكية؛ حتى يتمكنوا من رؤيته والحديث معه، وعندئذ لا يتحقق مرادهم؛ لأن الذي يخاطبهم في صورة رجل؛ كما قال الله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) .

(٢) أنه إذا جاءهم الرسول ملكًا في صورته البشرية، فإنهم لا يعرفونه من قبل، ومن الممكن أن ينكروا عليه؛ فهو غريب عنهم لم يعلموا شيئًا عن صدقه، وأمانته؛ ولذلك كانت رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل من قومهم وبلسانهم؛ قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ، وقال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) .

(٣) أن الرسل عندما يكونون من الملائكة لا يملكون معنى القدوة؛ لأن الناس سيجدون لأنفسهم مبررًا في انحرافهم عن دعوة هؤلاء الملائكة؛ وذلك لأنهم - أي: الملائكة - مفطورون على العبادة، وليس فيهم هذه الشهوة التي أودعها الله في البشر، فكانت الحكمة أن يكون هؤلاء الرسل من طبيعة البشر؛ ليكون ذلك أمكن في التوجيه، ثم في القدوة لهذا التوجيه.

صفاتهم الخلقية :

تمام الذكاء والفطنة : فهم أعقل الناس وأرجحهم عقلًا.

الصدق : فهم أصدق الناس لهجة، فلا يكذبون أبدًا. صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} .

الصبر: فالرسل كانوا مبشرين ومنذرين، يدعون إلى دين الله تعالى، وقد أصابتهم صنوف الأذى وأنواع المشاق، ومع ذلك فقد صبروا وتحمّلوا في سبيل إعلاء كلمة الله، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} .

الأمانة : فهم أمناء الله على وحيه، وغير ذلك من الصفات التي تدل على نبل معدنهم.

و المقصود بها: حفظ جوارحهم الظاهرة والباطنة من التعدي على ما اؤتمنوا عليه من وحي الله سبحانه وتعالى سواء كان تبليغاً أو كتماناً، فقد يؤمرون بتبليغ شيء مثل الرسائل التي أمروا بتبليغها: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وقد يأمرون بكتمان شيءٍ مما يدخل في الإخبار عن المستقبل والغيوب، وقد يكون فتنةً على الناس.

التبليغ :

فهو صفةٌ من صفاتهم وإن كان من الصفات الداخلة في الأمانة؛ لأن من الأمانة أن تبلغ الرسالة، والتبليغ الذي يجب على الرسل هو أن يبلغوا عن الله سبحانه وتعالى ما تقوم به الحجة، فلو لم يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم حكماً إلا إلى شخص واحد، لكنه ظن به أنه يمكن أن يبلغه لغيره أو أنه سيبلغه لغيره، فذلك كافٍ في تبليغه، ولهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمد في تبليغ بعض رسالات ربه على الأفراد، ككتبه التي أرسلها إلى الملوك بواسطة رسل من الأفراد كـعبد الله بن حذافة بن قيس إلى هرقل وكـدحية الكلبي إلى عظيم مصر، وكـعمرو بن العاص إلى ابني الجلندا وهكذا. ونحو هذا ما رواه عنه الآحاد مما حدثهم به، فإنهم بلغوه ونُقل إلى الأمة، ولهذا فإن ما يبلغه عن الله سبحانه وتعالى من الرسالة محفوظ كحفظ القرآن.

صفة الرفعة في الأنبياء

وأما صفة الرفعة التي تجب للرسل فهي أنهم يرسلون من نسب قومهم، وقد أخبر بذلك هرقل أبا سفيان في حديث ابن عباس في الصحيحين: (كذلك الرسل ترسل في نسب قومهم) والحكمة من ذلك: حتى لا يكون اختيارهم في الطبقات الدنيا من المجتمع فتنةً على الناس.وكذلك ما يتعلق بأبدانهم وصورهم فيجب أن لا يكون فيهم مُنفر، فيستحيل في حقهم كل مُنفرٍ سواء كان من العيوب الخلقية، أو من الأمراض أو نقص العقل، أو العته أو غير ذلك، فهذا من المستحيل في حقهم ولا يمكن أن يقع.

ثانيًا: الذكورة :

قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) [الأنبياء: ٧].

وقال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) [يوسف: ١٠٩].

ويتفرع مما سبق - أي: من كونهم بشرًا - ما يلي:

الأنبياء لا يعلمون الغيب؛ قال تعالى: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل: ٦٥].

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ١٨٨].

ب- - مقتضى بشرية الرسل أنهم يتصفون بصفات البشر، فمن ذلك:

• أنهم يُولَدون، وأنهم يتزوجون ويولد لهم؛ قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) .

• أنهم يأكلون ويشربون؛ قال تعالى: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) .

• أنهم يموتون؛ قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) [

وقال تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) .

• أنهم يتعرضون للبلاء، بل هم أشد الناس بلاء؛ كما ورد في الحديث عن سعد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً؟ قال: ((الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتُلِي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)).

• وأنهم يعملون بأعمال البشر؛ فقد عملوا برعي الغنم، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أكنت ترعى الغنم؟ فقال: ((وهل من نبيٍّ إلا وقد رعاها))].

وعمل النبي صلى الله عليه وسلم بالتجارة.

وكان داود حدادًا؛ قال تعالى: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ) .

وكان زكريًّا نجارًا؛ كما ثبت ذلك في صحيح مسلم.

خصائص الأنبياء و الرسل :

ومع كونهم بشرا فقد تميزوا عن بقية البشر بأمور، منها:-

• تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء: (والنبي نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم) .

• الأنبياء يخيرون عند الموت؛ فعن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة) .

وثبت عنها: أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في مرضه الأخير: (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) ، قالت: فعلمت أنه خُيِّر) .

• الأنبياء يدفنون حيث يموتون؛ روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم يقبر نبي إلا حيث يموت) ، ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم دفن في حجرة عائشة حيث مات عليه الصلاة والسلام.

• الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وقد ثبت ذلك صريحًا في الحديث: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء).

• الأنبياء أحياءٌ في قبورهم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا قال: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلُّون) ، وهذه حياة برزخية، لا يعلم كيفيتها إلا رب العالمين، فلا نخوض في معرفة ذلك بآرائنا وأوهامنا.

* أن الله خصهم بالوحي دون بقية الناس، كما قال سبحانه: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} .

وقد بيَّن الله كيفية الوحي إلى رسله، فقال تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) .

فدل ذلك على أن الوحي ثلاثة أقسام:

الأول: أن يوحي الله إليه، وقد فسر العلماء ذلك إما بالمنام، وقد ثبت في الحديث: ((رؤيا الأنبياء وحي))، وفسره بعضُهم بالإلقاء في القلب؛ كما ثبت في الحديث: (إن روح القدس نفَث في رُوعِي - أي: قلبي -: أن نفسًا لن تموت حتى تستكملَ رزقَها وأجلها؛ فاتقوا اللهَ وأجمِلوا في الطلب) .

الثاني: تكليم الله لرسله؛ قال تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء: ١٦٤]، وهذه خاصة لموسى، كما أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا، وقد نال النبي محمد صلى الله عليه وسلم منزلة تكليم الله في ليلة المعراج فقط.

الثالث : إرسال الملك جبريل، إما في صورته الحقيقة، أو أن يتمثل له بشرًا، وهو الغالب، أو يأتيه في مثل صلصلة الجرس؛ فقد ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: ((أحيانًا يأتيني مِثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني، فأَعِي ما يقول).

من خصائصهم أيضا : العصمة:

إجماع الأمة على أن الأنبياء معصومون في تحمُّل الرسالة وفي تبليغها؛ قال تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) ، وقال تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) ، هذه الآيات تثبت العصمة بالنسبة للتحمُّل.

وأما بالنسبة للبلاغ فقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

وعلى هذا فالأمور التي اجتهد فيها وليست مما أمر بتبليغه يمكن أن يقع منه الخطأ فيها، لكن لا يُقر على ذلك الخطأ ولابد أن يبين له ما أخطأ فيه، هذا معنى الصدق والعصمة.

وهل هم معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها؟

اتفق العلماء على أن العصمة صفةٌ من صفات الرسل ويجب اعتقادها في حقهم، ولكن اختلفوا في تحديد العصمة، فحددها بعضهم بمنع الخطأ من الكفر والكبائر قبل الرسالة ومنع الخطأ مطلقاً بعد الرسالة. وحدد آخرون بأن المقصود بها: منع الخطأ بعد الرسالة فقط، وأما قبل الرسالة فلا مانع من الشرك والكفر والكبائر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام) .

و من خصائصهم تاييدهم بالمعجزات

ان الله تعالى قد أيّد رسله عليهم السلام بالمعجزات البينة والبراهين القاطعة الدالة على صدقهم، وصحة نبوَّتهم ورسالتهم، فأجرى الله على أيدي رسله المعجزات الخارقةَ التي ليست في مقدور البشر من أجل تقرير صدقهم وإثبات نبوتهم.

****

دعوات أولو العزم من الرسل

العزم معناه: القوة والثبات والعزم في الأمر.

وقد اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل على قولين:

القول الأول: أنهم طائفة من الرسل اختصوا بهذا الوصف، وهم الخمسة المذكورون في آيتين: الأولى في سورة الأحزاب، والأخرى في سورة الشورى.

والقول الآخر: أنهم جميع الرسل، فكل الرسل على هذا القول هم أولو عزم، والله تبارك وتعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بالرسل في الصبر، وكلهم ذوو صبر وذوو عزم، فمعنى قوله تعالى:

{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } عند القائلين بهذا القول: أن الله تعالى أرسل الرسل وهم كلهم أولو عزم، وأولو صبر، وأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا، فكلهم قد أوذي في الله، وكلهم كُذِّب .

وجميل ما قاله ابن عطية :ولا محالة أن لكل نبي ورسول عزماً وصبراً.

وأما آية طه : {وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} في حق آدم فلا تدل على أنه ليس من أهل العزم عموماً ، وإنما نفى عنه العزم في مسألة أكل الشجرة ، أي لم نجد له عزماً في ترك الأكل من الشجرة التي نهي عنها .

و الراجح القول الأول، لقوله تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ، فإن الله أمره في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } أن يقتدي بهم في الصبر، وأمره في قوله تعالى:{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ } أن يصبر وألا يكون مثل يونس عليه السلام .

فنقول: إن الله سبحانه وتعالى الذي أمره أن يصبر كما صبر أولو العزم، أمره في آيةٍ أخرى أن يصبر وألا يكون مثل واحد منهم، فانتفى العموم بذلك الواحد؛ لأن العموم ينتفي بوجود أفراد من الرسل ليسوا ممن أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتأسى بهم في الصبر، فتبين أن صاحب الحوت يونس عليه السلام ليس من أولي العزم.

****

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة :

محمد صلى الله عليه وسلم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل .

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)

وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع ،(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).

وفي قوله :(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ).

بم يتفاضل الأنبياء والرسل ؟ :

الذي يتأمل في الآيتين اللتين أخبرتا بتفاضل الأنبياء والرسل يجد أن الله فضّل مَن فضّل منهم بإعطائه خيراً لم يعطه غيره ، أو برفع درجته فوق درجة غيره ، أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه ، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه

وقد اختص الله آدم بأنّه " أبو البشر ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له " .

وفضل نوحاً بأنّه " أوّل الرسل إلى أهل الأرض ، وسمّاه الله عبداً شكوراً " .

وفضل إبراهيم باتخاذه خليلاً :(وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) وجعله للناس إماماً :(إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا).

وفضل الله موسى برسالاته وبكلامه : (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي) واصطنعه لنفسه : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي).

وفضل عيسى بأنّه رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكان يكلّم الناس في المهد : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ) .

ويتفاضل الأنبياء من جهة أخرى :

فالنبي قد يكون نبياً لا غير ، وقد يكون نبياً ملكاً، وقد يكون عبداً رسولاً ، " فالنبي الذي كُذِّب ، ولم يتبع ، ولم يطع ، هذا نبيٌّ ، وليس بملك ، أمّا الذي صدق ، واتبع ، وأطيع ، فإن كان لا يأمر إلاّ بما أمره الله به فهو عبد نبي ليس بملك ، وإن كان يأمر بما يريده مباحاً له فهو نبي ملك ، كما قال الله لسليمان : (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

فالنبي الملك هنا قسيم العبد الرسول ، كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : " اختر إمّا عبداً رسولاً ، وإمّا نبياً ملكاً " وحال العبد الرسول أكمل من حال النبي الملك ، كما هو حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنّه كان عبداً رسولاً ، مؤيداً مطاعاً متبوعاً ، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه ، وينتفع به الخلق ، ويرحموا به ، ويرحم بهم ، ولم يختر أن يكون ملكاً، لئلا ينقص ، لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال ، عن نصيبه في الآخرة .

فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف ".

فضل الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم :

عندما يبعث الله الأولين والآخرين في يوم الدين يكون رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سيّد ولد آدم ، بيده لواء الحمد ، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه، فعن أُبيٍّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍ يومئذٍ آدم فمن سواه إلاّ تحت لوائي، وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض ولا فخر "

وعندما يشتدُّ الكرب بالناس في ذلك اليوم يستشفع الناس بالرسل العظام ليشفعوا إلى الله ليقضي بين عباده فيتدافعها الرسل ، كلُّ واحد يقول : اذهبوا إلى غيري ، حتى إذا أتوا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال : " اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر " .

وقد فضله الله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل ، فمن ذلك أنّه اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه وأبو عوانة " إنّ الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً " ، وآتاه القرآن العظيم الذي لم يُعط أحدٌ من الأنبياء والرسل مثلَه : (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ).

* وخصّه الله دون غيره بستٍّ لم يعطها أحد من الأنبياء قبله ، ففي الحديث : عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ،

وأحلّت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافّة ، وختم بي النبيون ".

١ - أوتي جوامع الكلم، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة .

٢ - ونصر بالرعب ، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله وأتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

٣ - وأحلّت له الغنائم ، وكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تجمع ثمّ تنزل نار من السماء تحرقها .

٤ - وجعلت له ولأمته الأرض مسجداً وطهوراً ، فحيثما أدركت رجلاً من هذه الأمة الصلاة فبإمكانه أن يتوضأ فإن لم يجد يتيمم ، ثمّ يصلي في مسجد مقام ، أو في منزل أو في الصحراء .

٥ - وأرسل إلى النّاس كافة عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم ، من كان في وقت بعثته ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا).

وأرسله إلى الجنّ كما أرسله إلى الإنس ، وقد رجع وفد الجنّ بعد استماع القرآن ، والإيمان بما نزل من الحق . داعين قومهم إلى الإيمان : (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).

٦ - والفضيلة السادسة أنّه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده (وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ).

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده يغير شرعه ويبطل شيئاً من دينه ، أمّا نزول عيسى آخر الزمان فهو حقٌّ وصدق – كما أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم – ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والإنجيل ، بل يحكم بالقرآن ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويؤذن بالصلاة .

دعوة نبي الله نوح عليه السلام

تحدث القرآن الكريم في مواضع عديدة عن رسالة نوح عليه السلام ودعوته إلى قومه ومدى صبر هذا النبي على الدعوة التي كانت من أكثر الدعوات الإلهية في امتدادها الزماني.

* مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى ، ثم اختلفوا .فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

- ويعتبر انحراف قوم نوح عليه السلام أول انحراف عقدي على وجه الأرض.

وكان السبب في ذلك : الغلو في الصالحين .

يقول ابن جرير الطبري: (إنه كان قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا للعبادة إذا ذكرناهم فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال:" إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر" فعبدوهم وأصبح لكل صنم من هذه الأصنام عبيد مخصصون له من الناس ولما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله ولهم في

عبادتها مسالك كثيرة جداً.. وهذا ما ينتشر في كثير من الأزمان إذ أن عدداً من أتباع عالم من العلماء يتصورون لأنه لا يمكنهم الخشوع في عبادتهم إلا إذا تصوروا سيدهم أمامهم، ولربما إذا مات تصوروا ذلك أو صوروا ذلك العالم ووضعوه أمامهم وهذه بداية عبادة الأوثان والأصنام).

- **أساليب نوح –عليه السلام- في دعوته للتوحيد :**

١ - اختيار الأسلوب المناسب والأقرب للاستجابة:

* **فمرة بالسر ومرة بالجهر** : كما قال تعالى عنه: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا }

"والمعنى: أنه توخى ما يظنه أوغل إلى قلوبهم من صفات الدعوة، فجهر حين يكون الجهر أجدى، مثل مجامع العامة، وأسرّ للذين يظنهم متجنبين لوم قومهم عليهم في التصدي لسماع دعوته، وبذلك تكون ضمائر الغيبة في قوله: (دعوتهم)، وقوله: (أعلنت لهم وأسررت لهم) موزعة على مختلف الناس".

فأما الجهر ففيه بيان أن هذا الأمر ليس مما ينبغي إخفاؤه والاستحياء منه، وفيه إقامة الحجة على الآخرين، فإذا قامت الحجة وعجز الكبراء عن ردها، كان ذلك أدعى إلى تمسك المؤمنين، وإذا ظهرت الاستجابة معلنة ففي ذلك تشجيع للآخرين على الاستجابة..

* - **ومرة بالترغيب** : كما قال تعالى عنه : {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا }.

* - **ومرة بالترهيب** : قال تعالى عنه : { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا } .

* - **ومرة بأنه ناصح لهم مخلص**: قال تعالى عنه أنه قال لهم : {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .

* **بالاستعطاف لقومه وإظهار شفقته** عليهم ،قال تعالى : {إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ}، وقال: {إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}

* **استغلال عموم الأوقات المناسبة للدعوة إلى الله**: قال سبحانه: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوتُ قَومِي لَيلاً وَنَهَارًا). فلم يقتصر على وقت دون وقت، فكانت دعوته – عليه السلام – بالليل والنهار، وفي هذا دلالتان:

الأولى: أن ذلك يدل على اجتهاده – عليه السلام – في الدعوة إلى الله تعالى، فلم يفرط في ضياع وقت من الأوقات، بل حاول استغلال الأوقات المناسبة، ولم يحصر الدعوة في وقت معين، فالهدف هو هداية الناس ببذل ما يستطيع من جهد في دعوة قومه دون أن يحصر هذه الدعوة في وقت محدد.

الثانية: أنه – عليه السلام – يحاول اختيار الأنسب والأقرب لاستجابتهم، ويراعي اختلاف طبائعهم، فمن لم تنفع معه دعوة النهار دعاه بالليل، ومن لم تنفع معه دعوة الليل دعاه بالنهار، وربما كان بعضهم مشغولا بالنهار لا يهدأ إلا في الليل، وآخرون لا يرغبون في الليل سوى الهدوء والسكينة، غير مستعدين للإنصات أو الالتفات إلى أحد، ولكل من الوقتين من المميزات ما ليس للآخر، وفترات

استعداد الناس لقبول الدعوة تتفاوت، فربما كان وقت أنسب من وقت، وهذا بحسب الظروف المحيطة بالناس.

٢ - العتاب والتوبيخ:

فمن حق الرجل أن يخاطب قومه ويعاتبهم، حرصا على هدايتهم، وهذا ظاهر في مخاطبة نوح - عليه السلام – قومه بقوله: (مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا).

٣ - الاستدلال على الربوبية والألوهية :

وقد لفت نوح – عليه السلام – أنظار قومه إلى آيات كثيرة دالة على وحدانية الله – عز وجل – وربوبيته، وهي كالآتي:

١ - **النفس:** قال سبحانه: (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)، فأشار إلى خلقهم وتكوينهم في مراحل متعددة، وحفظ الله تعالى لهم في تلك المراحل.

والمراد بالأطوار عند بعض المفسرين: الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة والقوة والضعف.

٢ – **الكون**: ثم لفت أنظارهم إلى السموات وما فيها من آيات ظاهرة، وأبرزها: الشمس والقمر، وجعل السموات سبعا، بعضها فوق بعض، قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا).

٣ - **بدء خلق الإنسان ونهايته:**

ومن أبرز الآيات: بدء خلق الإنسان ونشأته من التراب، وإعادته إليه بعد الموت، وبعثه بعد الموت وخروجه من الأرض، قال سبحانه: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا).

وفي معنى هذه الآية وجهان: **أحدهما** ، أن المعنى: أنبت أباكم من الأرض، كما قال سبحانه: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ) ، وكما قال سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) ،

والثاني: أنه تعالى أنبت الكل من الأرض؛ لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف، وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض.

وعلى كلا المعنيين، فهذه من الآيات التي يجب على المرء أن يتفكر فيها، ويستدل بذلك على قدرة الله تعالى، وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواطن كثيرة، كما قال سبحانه: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) ، وقال سبحانه: (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) .

٤ – بسط الأرض:

ومن نعم الله – عز وجل – الدالة على ربوبيته: بسط الأرض لعباده وتمهيدها لهم، لطلب المنافع في شتى نواحيها، وقد أشارت إليها السورة في قوله سبحانه: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِسَاطًا، لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا).

وقد جمعت هذه الآية بين الامتنان على العباد، والاستدلال على ربوبية الله تعالى، كما يقول الطاهر بن عاشور: "هذا استدلال وامتنان، ولذلك عُلِّق بفعل (جعل) مجرورٌ بلام التعليل، وهو (لكم) أي: لأجلكم.

****

بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه ؟

أولاً - اتهموه بالجنون : قال تعالى: { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ }.و قال تعالى: { إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ }

ثانياً - اتهموه بكثرة الجدال : قال تعالى عنهم: { قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا }.

ثالثاً - اتهموه بالضلال : قال تعالى: { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } .

رابعا - توعدوه بالرجم :قال تعالى عنهم : { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ }.

خامساً – التهكم والسخرية : قال تعالى: { وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ }

سادسا _ كون نوح من البشر : قال تعالى : { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا} .

سابعا - أن أتباع نوح من الأرذلين : قال تعالى: { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ }.

وقال تعالى : {قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}

****

صناعة الفلك :

بعد هذه المدة الطويلة والصبر والثبات على الدعوة بقي قوم نوح على ضلالهم فدعا نوح عليه السلام على قومه بالهلاك بعد استحقاقهم له، قال تعالى: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً)٦.

وتشرح لنا الآية بوضوح أن سبب دعائه عليهم هو أنهم مضافاً إلى عدم استجابتهم للدعوة أصبحوا ممن يضل الناس ويمنع من يميل إلى الحق من الإيمان بدعوة نوح ولن يولد من نسلهم إلا من هو كافر.

واستجاب الله دعاء نوح وكتب على القوم أن يكون عذابهم بالطوفان ولذا وجّه أمره إلى نوح بصناعة السفينة قال تعالى: (وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)٧.

ولا بد وأن يكون الموقف الطبيعي لهؤلاء القوم الذين اتصفوا بمساوئ الأخلاق هو الإستهزاء بنوح وبمن معه: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

ورحمة النبي بقومه تظهر حتى بعد دعائه عليهم ورغم استهزائهم به، ولذا لم يكن في جوابه إلا الرحمة والإنذار لقومه بالعذاب الإلهي لعلَّ قلوبهم تلين للحق.

****

طبيعة المكذبين ونهايتهم:

١ - الفرار من الدعوة:

كما قال سبحانه: (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا). وهذا يدل على خذلان الله سبحانه وتعالى لهم، وعدم توفيقه إياهم.

ومعنى: (لم يزدهم دعائي إلا فرارا) : أن دعائي لهم بأن يعبدوا الله وبطاعتهم لي لم يزدهم ما دعوتهم إليه إلا بعدا منه، فالفرار مستعار لقوة الإعراض، أي: لم يزدهم دعائي إياهم قربا مما أدعوهم إليه.

٢ - زيادة العناد عند سماع الدعوة..

كما قال سبحانه عن نوح عليه السلام:

وهذا يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لدعوة نوح عليه السلام.

وفي هذه الآية لطيفتان جميلتان في وصف حال هؤلاء المكذبين:

الأولى: في قوله سبحانه: (دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ) فلم يقل: دعوتهم ليتوبوا أو ليوحدوا فتغفر لهم، وإنما ذكر المسبب وهو مغفرة الله عز وجل، ولم يذكر السبب وهو الإيمان والتوبة، وفي هذا بيان قبح إعراضهم، حيث أعرضوا عن الشيء الذي يؤدي إلى مصلحتهم ومغفرة ذنوبهم، ويُظهر شدة حرصه على إيصال الخير إليهم.

الثانية: في قوله سبحانه: (كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ) حيث لم يجعلوا أصابعهم في آذانهم ويستغشوا ثيابهم مرة واحدة، أو في بعض الأحيان، وإنما كان ذلك عند كل دعوة من دعواته لهم.

٣ - الإصرار على الباطل:

وهذا ما كان من شأن قوم نوح عليه السلام حيث وصفهم بالإصرار على الباطل، في قوله سبحانه عنهم: (وَأَصَرُّوا).

والإصرار: التعقد في الذنب، والتشدد فيه، والامتناع من الإقلاع عنه.

ولقد بلغ من إصرار قوم نوح – عليه السلام – أن لبث فيهم تسعمائة وخمسين عاما، وهو يدعوهم إلى الله تعالى، ومع ذلك لم يؤمنوا، وهذا يدل على شدة إصرارهم على الكفر وانهماكهم فيه، كما قال سبحانه: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُون) فلم يتأثروا بنصحه عليه السلام.

٤ _ الاستكبار عن الحق :

وأسوأ ما يكون في حال المدعو: أن يعرف الحق، وتقوم عليه الحجة، ثم يمنعه الكبر عن قبول الحق والاستجابة إليه، وهذا ما كان من شأن قوم نوح عليه السلام فقد عصوا نوحا، وكذبوه، وكان الباعث على ذلك الكبر، كما قال سبحانه: (وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

والاستكبار يقال على وجهين:

أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، فمحمود.

والثاني: أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا ما ورد في القرآن.

٥ - اتباع السادة والكبراء:

وهكذا كان شأن قوم نوح – عليه السلام – في اتباعهم الكبراء والوجهاء، فلم يكونوا يبحثون عن الحق، ولا يطلبونه، وإنما يقلدون في ذلك، ويجاملون، ويتبعون الهوى والمصلحة الدنيوية العاجلة، دون النظر فيما فيه فلاحهم أو خسارتهم، والمهم لديهم أن يكون المتبوع ذا مال وولد وجاه وسلطان، كما قال سبحانه: (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا).

والمعنى: واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خسارا؛ لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد، فزادتهم خسارا، إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكابا للفساد، قال تعالى: (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً) .

٦ - التآمر على الدعوة والدعاة:

ولغيظ المكذبين من الدعوة والدعاة إلى الله تعالى، فإنهم يمكرون بهم، ويسعون إلى إيذائهم، وقد مكر قوم نوح مكرا كبيرا شديدا، كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا).

ومكر المكذبين يشمل أمرين:

الأول: التآمر على الدعوة، والصد عنها، والتواصي بالاستمرار على الشرك والكفر.

والثاني: التآمر على الدعاة والمصلحين، والسعي في إيذائهم.

ولا شك أن قوم نوح – عليه السلام – قد جمعوا بين الأمرين..

٧ - الدعوة إلى التمسك بالباطل.

من تزيين الشيطان لأتباعه أن جعلهم يدعون إلى الباطل، ويحثون قومهم على البقاء على الشرك والكفر، فلا يكتفون بكفرهم وشركهم وبعدهم عن الحق، ولكنهم يدعون غيرهم إلى التمسك بالكفر والضلال، قال سبحانه: (وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا).

وقد كان من شأن كل من اليهود والنصارى أن دعوا إلى مللهم، وزعموا أنها طريق الهداية، كما قال سبحانه: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ) ..

وهكذا فعل المشركون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما في قوله سبحانه: (وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ) .

وهكذا منهج الكفر في كل زمان ومكان، فهم لا يفتأون يحثون أتباعهم على التمسك بدينهم الباطل، دون النظر إلى ما جاء به الداعية وإعمال العقل؛ ليعرفوا صحة ما جاء به أو بطلانه.

٨ - نهاية المكذبين :

من سنة الله عز وجل إهلاك المكذبين، بسبب الذنوب والمعاصي، وقد حصل ذلك لقوم نوح عليه السلام، وذلك بإغراقهم، وقد بين سبحانه وتعالى أن ما أصابهم إنما هو بسبب خطاياهم، قال سبحانه وتعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا).

وهذا عذاب في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فهو عذاب الغرق، بإرسال الطوفان، كما قال سبحانه: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) ، وكما قال سبحانه: (فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) .

وأما في الآخرة : فهو عذاب النار، سواء كان ذلك في البرزخ أو يوم القيامة، على خلاف بين المفسرين.

"فجمع الله لهم أقصى العقوبتين: الإغراق والإحراق، مقابل أعظم الذنبين: الضلال والإضلال".

****

عبر مستفادة من دعوة النبي نوحٍ عليه السلام

١ - إن من يريد أن يدعو إلى الحق عليه أن لا يصاب بالملل والضجر فإنه لن يصل في الدعوة إلى ما وصل إليه نبي الله نوح عليه السلام الذي أمضى الألف سنة إلا خمسين عاماً في دعوته لقومه لم يكل ولم يمل من دعوتهم إلى طريق الله رغم أنه لم يجد نتيجة بعد كل هذه السنين.

٢ - إن عدم ظهور أثرٍ للدعوة وإصرار الآخرين على الباطل لا يعني اليأس عن دعوتهم إلى الحق، بل على الإنسان أن يستمر بكل طاقاته لأداء التكليف الإلهي الذي أنيط به، وبكل ما أعطاه الله من قوة.

٣ - إن طريق الدعوة إلى الله عز وجل لا بدَّ وان ينطلق دائماً من الحوار الذي يعتمد على المنطق والاستدلال ولذلك نجد إن القرآن عندما يحدثنا عن قصة نوح يحدثنا عن الحوار الذي دار بينه وبين قومه. فإنه مع وصفهم له بأنه في ضلال مبين قال لهم وبلين ومحبة أنَّه ليس على ضلال، بل على الحق وأنه لا يريد من دعوته لهم سوى ما به مصلحتهم.

٤ - إن من يريد أن يدعو إلى الله عز وجل لا بد وأن يتحلى بالصبر الشديد فهذا نوح اتهمه قومه بالجنون : (إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)٤.

وهددوه بأن يرجموه : (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمَرْجُومِينَ)٥، فلم يمنعه تهديدهم بالتصفية الجسدية، ولم يخف من مكائدهم، بل صبر على أذيتهم إلى أن جاء أمر الله تعالى في عذابهم.

****

دعوة إبراهيم عليه السلام

ولد إبراهيم عليه السلام بأرض بابل في العراق في عهد النمرود الذي كان حاكما لتلك البلاد مستبدا جبارا وقد نصّب نفسه الها لقومه الذين كانوا يعيشون في دياجير الجهل والضلال وعبادة الأصنام. وكان أب ابراهيم وهو ازر نجارا وينحت الأصنام ويبيعها. ولما شبّ إبراهيم عليه السلام تزوج امرأة اسمها "سارة" وكانت عقيما لا تلد.

نماذج من صفات إبراهيم الدعوية :

١ - **أمة :** قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً..}

وهذه الكلمة تأتي لعدة معان ، منها الجماعة {(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً)} ، ومنها الزمان والحين { وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} ومنها : الرجل الجامـــع لخصـال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس .

وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا علـى عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق حري بأن يحتذي به الدعاة في حيـاتهم وتزكية أنفسهم ، واجتهاد أحدهم في تقويم أخلاقه والنشاط في دعوته ليقوم مقام أمة في ذلك . وقيل أن المقصود بالأمة هنا : أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير .

٢- **قانت** : قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً}

والقنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع، وكذا يجب أن يكون الداعية ملازماً لطاعة الله على كل حال ، فلا يكون كالمنبت يجتهد حتى تكلّ راحلته ، ثم ينقطع ، بل يلازم ويستقيم .

٣- **حنيفاً :** والحَنَف : الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنيفُ : المائل والجنف : ضده . والأحنف : مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً ، وقيل لمجرد الميل .

قال ابن كثير: الحنـيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد . وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين ، قال تعالى : ((ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ)) ، وهكذا فليكن أولياء الله .

٤- **شاكر:** قال تعالى : { شَاكِراً لأَنْعُمِهِ} أي قائماً بشكر نعم الله عليه .

. والشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، وثناؤه عليه ، وأن لا يستعملها فيما يكره ، وقد كان ذلك من إبراهيم -عليه السلام- .

٥- **الحلم** : قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ } .

والحلم : ضبط النفس والطبع عن الهيـجـان عنـد الاستثارة . والحليم : الكثير الحلم .

٦- **أوّاه:** قال الراغب الأصفهاني : "الذي يكثر التأوه وهو أن يقول : أوّه وكل كلام يدل على حزن يقال له التأوّه، ويعبر بالأوّاه ، عمن يظهر خشية الله تعالى"(*) ، والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع.

٧- **السخاء** : قال تعالى : { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ} فذكر أن الضـيـف مكـرمـون لإكرام إبراهيم لهم ، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان ، مـع أنهم قـوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه ، ولم يعلمهم بذلك بل راح: أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به، تجاوباً لضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه ، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال: ((أَلا تَأْكُلُونَ)) .

٨- **الصبر** : كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر كصبرهم { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} . وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة ، سيأتي بيان جملة منها بإذن الله .

٩- **الشجاعة :** واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً : { وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} ، وقوله لهم : { أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ..)} .

وكان ذلك لعلم إبراهيم بأن معه القوة التي لا تـهـزم، وأن مـا أصابه لم يكن يخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فرسم للدعاة منهجاً في الشجاعة المنضبطة بضوابط الشرع بلا تهور يحتذونه في مواجهة الباطل من إقرار الحق .

١٠- **سلامة القلب** : قال تعالى : { وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }

وسلامة القلب نوعان: كـلاهما داخل في مضمون الآية، أحدهما: فـي حـق الله وهـو سـلامـة قلبه من الشرك، وإخلاصه العبودية لله ، وصدق التوكل عليه . والثاني : في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم ، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك .

****

مراحل دعوة إبراهيم عليه السلام :

ذكر القرآن الكريم لدعوة إبراهيم عليه السلام ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى : دعوته لأبيه .

يقول الله جل وعلا { واذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً ؤؤيؤؤىةةةلاؤء إِذْ قَـالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَـاءَنِـي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِياً * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَـانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ ولِـيـاً * قَـالَ أَرَاغِـبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْنِي مَلِياً * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِياً * وأَعْتَزِلُكُمْ ومَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِياً } .

* لقد كانت كلمات إبراهيم تفيض حناناً وشفقة وتتدفق عطفاً ورقة ، فبيّن لأبيه أن ما يعبده فاقد لأوصاف الربوبية .

* ثم حذره من عدو البشرية الذي تلبس بمعصية الرحمن فهو جدير بأن يتخذ عدواً وأن لا يطاع بل يعصى .

* ثم أعلمه بشدة خوفه عليه من أن يمسه مجرد مس عذاب من الرحمن فيكون ولياً للشيطان .

* وأمام هذه الدعوة الحانية الرفيقة المتزنة تأتي عبارات الأب الفجـة الغليظة التي تمثل صورة التقليد الأعمى وإغلاق القلب عن النظر والتأمل ، ومع ذلك كله فإن الابن البار لم يواجه تلك السيئة إلا بالتي هي أحسن ، وذلك قبل أن يتبين له أنه عدو لله { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} ثم قرر اعتزاله ليراجع الأب نفسه، ولينأى إبراهيم بنفسه عن الشر ومواطنه، وكانت رحمة الله لإبراهيم أن عوضه بأبناء صالحين بررة عن أولئك القوم الفجرة.

المرحلة الثانية : دعوته لقومه.

بعد أن دعا إبراهيم أباه لقربه توجه بالدعوة إلـى قومه ، وكانوا فيما قبل قسمان ، منهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الكواكب ، وقيل : إنهم كانوا يعبدون الكواكب ويصورون أصناماً على صورها يعبدونها ويعكفون عليها :

* فأبطل كلا المعبودين بالأدلة القطعية .

* وبدأهم بالدعوة إلى توحيد الله بالعبادة وتقواه وبين لهم أن ما يعبدون ما هو إلا إفك مفترى ، وأنها لا تملك لهم رزقاً فليعبدوا من يملك رزقهم .

* ولقد سلك إبراهيم في إقناع قومه مسلك المساءلة عن جدوى أصنامهم ، هل تنفع أو تضر أو تسمع الدعاء ، فما وجد إلا التبعية العمياء { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} فما كان من إبراهيم إلا أن أعلن البراءة مما هم عليه. وأوضح سبب ذلك وسبب قصره العبادة على الله { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ... الآيات].

أما عبادتهم للكواكب فقد سلك في دحض تعلقهم بها سبيل المناظرة وذلك فيما حكاه الله عنهم في سورة الأنعام ، وسيأتي إن شاء الله تفصيل ذلك في رسائل إبراهيم العملية.

المرحلة الثالثة : دعوته للملك، حين ناظره في ربه :

وذلك فيما حكاه الله تعالى عنهم في سورة البقرة فقال: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ:...)) وتفصيل ما وقع فيها آت بإذن الله في الوسائل .

أساليب إبراهيم في الدعوة إلى الله

أولاً : الأساليب النظرية

والمقصود بالأساليب النظرية: هي الفنون أو الطرق التي تخضع للدراسة والتلقي والتعليم والبحث والتأمل المجرد عن التطبيق والتجارب العملية ووسائلها.

١ - تقرير توحيد الألوهية ببيان دلائل الربوبية :

{ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فبين أن الله هو الرزاق ، فهو إذن المستحق للعبادة دون سواه ممن لا يملكون لأنفسهم - فضلاً عن غيرهم - رزقاً ولا نفعاً ولا ضراً، وقال: ((أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ...)) وأمثلة ذلك كثيرة.

٢ - **التصريح بقصد النصيحة وأنه لا هدف للداعي** إلا نفع المدعوين وأنه لا يريد على ذلك حظا من الدنيا

حكى الله عن إبراهيم أنه قال لأبيه :{(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً} فهو لا يريد شيئاً من أبيه ، وإنما يخاف عليه من عذاب الرحمن، فيكون ولياً للشيطان.

٣ - الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة :

وقد جاءت جلية في دعوته لأبيه وخطابه الرقيق الحاني المتدفق ليناً - وعطفاً ولطفاً ، اتباعاً للحكمة التي تقرب المدعو من الدعوة وتلين قلبه للاستجابة.

٤ - التشنيع على المعبودات الباطلة وعابديها :

لما بين إبراهيم لقومه دعوته ، وألان لهم الخطـاب ، لعلهم يستجيبون ، وما زادهم ذلك إلا التمادي في باطلهم ، فما كان من إبراهيم إلا أن أظهر تهافت معبوداتهم وأحنق النكير عليهم ، فقال :{ مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِـي أَنـتُـــمْ لَهَا عَاكِفُونَ} ولقد برهن لهم على سفههم ما سوغ في تهكمه بتصرفاتهم حيث سألهم: ((هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)) فإن أقل ما يقال في هؤلاء المعبودين أنهم لا يسمعون كعابدين فكيف يجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضراً؟

٥ - التذكير بنعم الله على عباده :

جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ولذلك عنىَ الدعاة إلى الله بتذكير الخلق إحسان الله إليهم ليكون ذلك أدعى إلى قبول الدعوة ولذلك قال لهم إبراهيم كما جاء في قوله تعالى :((أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ * وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * والَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ))

٦ - التذكير بأيّام الله :

ما من أمــة تَخْلف في الأرض إلا وتنظر في أحوال من سلف من الأمم تتبع مواطن العبرة فيها، فتستفيد من الإيجابيات ، وتحذر من السلبيات ، ولذا قال إبراهيم لقومه :((وإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ومَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ)) أي فقـد كذبت أممٌ أنبياءهم فحل بهم ما تعلمون من العذاب ، فإن فعلتم عوقبتم بمثل عقابهم، ومـــا على الرسول إلا البلاغ المبين.

٧ - المناظرة والتدرج في إفحام الخصم :

وسنذكر هنا مناظرتين وقعتا لإبراهيم، وذكرهما القرآن الكريم :

الأولى : مناظرته لعبدة النجوم ، قال الله تعالى :

((وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفاً ومَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ * وحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وقَدْ هَدَانِ... الآية} إلى قوله { وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ))*

الثانية : مناظرته للملك في قوله تعالى :

((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِـــنَ الـمَـغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ} .

لقد جادل الملكُ إبراهيم في ربه لأن الله آتاه الملك ، فحمـلـه كبره وبطره على طلب المخاصمة ، ولم يكن بسبب إيثاره الحق وطلبه له.

وكان الملك قد طلب من إبراهيم عليه السلام أن يقيم له الدليل على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : (ربي الذي يحيي ويميت} عندئذ قال الملك : { أنا أحيي وأميت} فآتى برجلين استحقا القتل فأمضيه في أحدهما دون الآخر ، فأكون قد أحييت الثاني ، وأمت الأول ، وهذه مكابرة صريحة، وعناد ظاهر ، يعلمه كل ذي عقل ، ولذلك ترك إبراهيم الخوض معه في مكابرته ، وجاءه بواقعة لا يحير معها جوبا ، قال : { فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب} أي إذا كنت قادراً على الإحياء والإماتة، وهما من صفات الرب ، فيلزم أن يكون بمقدورك التصرف في الكون ، وأن تأتي بالشمس من المغرب ، عندئذ بهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين.

٩ - استثارة الخصم :

والمقصود بذلك : تحريك نفوس المدعوين ، وتنبيه عقولهم ، ولفت أنظارهم إلى الأمر الذي يدعوهم إليه الداعية.

لقد فعل إبراهيم ذلك حين ترك كبير الأصنام بلا هدم (فجعلهم حطاماً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) وذلك من أجل أن تدور في أذهانهم الأسئلة التالية؟

- من فعل هذا بآلهتنا؟

- لِم لمْ يدافع الصنم الكبير عن صغاره؟ وهل كان ذلك عن عجز أو عدم إدراك لما يقع حوله؟

- لِم لمْ يوقع الصنم. الكبير سوءاً بمن فعل ذلك ؟

ثم استشارهم مرة أخرى حينما جاؤا إليه يسألونه عمن أوقع ذلك بآلهتهم فقال :

- بل فعله كبيرهم هذا ، فنسكب التكسير إلى جماد لا يتحرك ، ليقولوا له مباشرة : إنه لا يفعل شيئاً ، وليقروا بضعف هذه الآلهة.

- ولم يكتف بذلك ، بل أمرهم أن يوجهوا إليها الأسئلة إن أخبرهم بمن أوقع بها ذلك ، ولذلك أجابوا بكل سذاجة : »لقد علمت ما هؤلاء ينطقون« وعند ذلك انطلق مبادرا »أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون«.

****

ثانياً : الأساليب العملية : وهي كثيرة نختار منها :

١ - **القدوة** : لقد كان إبراهيم مثالاً يحتذى في الخير ، (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه) والأمر الذي نهينا عن الاقتداء بإبراهيم فيه استغفاره لأبيه { إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء.

٢ - **البداءة بالأهم** : بدأ إبراهيم بالدعوة إلى توحيد العبادة ، وهو أهم ما يدعي إليه ، وأول ما يبدأ به قال تعالى (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون).

٣ - **اللين والشدة** : وهذا ظهر جليا في دعوته لأبيه ، وفي دعوته لقومه ففي اللين قال :((يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً)) وفي الشدة قال : ((وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)) .

٤- **البراءة والمعاداة** : التي تعني البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم ، وهي أصل من أصول العقيدة ومن مستلزمات (لا اله إلا الله). قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : »أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله " .

وقد قال إبراهيم لأبيه حين استنكف واستكبر : (واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي...) وجعله الله في براءته من المشركين قدوة ، فقال: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ .

٥ - **الدعاء والتضرع** : ومن ذلك قوله تعالى : { واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} ، { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ومِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وتَقَبَّلْ دُعَاءِ} ، { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ولِوَالِدَيَّ ...)} ، إلى آخر ما هناك من الدعوات المباركات ، التي تضرّع بها إبراهيم ، وخلدها القرآن ، فكان قدوة في اللجوء إلى الدعاء.

٦ - **تحطيمه للأصـنـــام** : لم يكتفي إبراهيم في دعوته بالكلمة والحجة التي أبطل بها حجج الخصوم ، بل عضد ذلك بعمل كبير ، أقدم عليه بشجاعة وعلو همة ، وهو تحطيم الأصنام التي تعلق بها قومه ، وجعلها جذاذاً ، و ترك كبيرها لا لعجز ولا لخوف بل لعلهم إليه يرجعـــون ، فيحقق إبراهيم غرضه من هذا الأسلوب الدعوي الرائع .

٧ - **الهجرة** :

فهو أول من هاجر لله ، وكانت سنة لمن بعده من الأنبياء وأتباعهم ، وممن عمل بها محمد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحبه ، فكانت هذه من ثمرات تلك التجربة الإبراهيمية ولونا من الاقتداء به.

و الهجرة أسلوب يلجأ الدعاة إليه لأن أرضهم ما عادت تقبل الكلمة الطيبة ،فهم يبحثون عن أرض طيبة تحمل دعوتهم ، أو لأن القوم المعرضين بدأوا يناوشون الداعية ، ويوصلون الأذى إليه فهو يفر بدينه من الفتن ((ومَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وسَعَةً)) .

والهجرة أقسام وأنواع منها:

- الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضا في أيام النبي وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، فإن بقي في دار الحرب كان عاصيا.
- ومنها: الخروج من أرض البدعة، قال مالك: (فلا يحل البقاء بأرض يُسب فيها السلف).
- ومنها: الخروج من أرض غلب عليها الحرام، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.
- ومنها: الفرار من الأذية في الدين والبدن والمال والأهل؛ فإنّ حرمة مال المسلم وأهله كحرمة دمه بل أشد وأوكد، وذلك فضل من الله رخص فيه ليخلصها من ذلك المحذور.

والهجرة تعني إعلانا بمقاطعة حبل الولاية والنسب والقرابة وهجران في الاعتقاد والأبدان ومفارقة الأوطان، ليتميز الصف الموحد من الصف المشرك، فيلحق من كان بين الكفار بالركب المهاجر في سبيل الله الذين تركوا الركون إلى الدنيا وتجردوا لله وللدفاع عن دينه، وهجروا في ذلك الأهل والمال والوطن.

دروس وعِبر مستفادة من دعوة الخليل عليه السلام

١- إن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعِلْمِهم القليل المحدود.

٢- يجب على المؤمن أن يتوكل على الله في كل شئونه بحسن معاملته وتوثيق صلته و صلاح الذي بينه وبين ربّه .

٣- ليكن في حسبان الداعية أن طريقه محفوف بالمخاطر مفروش بالأشواك، ففي كل لحظة وساعة يتوقع وقوع الخطر، وليكن أسوته الخليل إبراهيم u في ذلك، لا يثنيه تخويف المرجفين ولا يرده بطش الجبارين.

٥- إن من أسباب نجاح الداعية عدم المبالاة بتعاظم الأخطار، كحال الخليل u فإنه لم ينزعج ولم يضطرب مع أنه يعاين بعينيه ما ينظم له من الخطر وما يُنْصَبُ له من النكال.

****

دعوة موسى عليه السلام

١ - موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، وهو كليم الله قال تعالى، الذي أوتي شريعة التوراة، وهي كتاب سماوي أنزله الله تعالى عليه، نزلت مكتوبة في الألواح تضمنت شريعة مفصلة :{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}.

٢ - ومما تميز به موسى عليه السلام أن الله تعالى برأه من كل سوء، وكانت له وجاهة عند ربه، ولذا كان أول من يفيق يوم القيامة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تخيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق فإذا بموسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله"

٣ - بعث الله نبيه موسى عليه السلام بدعوة الحق إلى فرعون وملأه مؤيداً بالمعجزات والبراهين ولكن قوبلت بالرفض ووجهت بالحرب، قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ }

ويأمر الله نبيه موسى عليه السلام: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى } .

فمن يتحمل أن يقف ويواجه هذا المجرم الطاغوت الذي حشر الناس جميعاً وقال لهم: { أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى وقال: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } تعالى الله عما يزعمه الفراعنة في كل زمان ومكان وما يقولون علواً كبيراً.

٤ - وفي هذه الظروف العصيبة يبين نبي الله لقومه ما يجب عليهم فعله للتخلص من الظلم والطغيان حين رأى خوفهم من فرعون كما أخبر الله عز وجل: (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } .

لقد وجههم إلى الاعتماد والتوكل على رب الأرض والسماوات .

٥ - اتجه موسى إلى ربه جل وعلا يدعوه أن يدمر تلك الأموال الطائلة التي كان يتبجح بها فرعون ووزراؤه، وكانت للقوم حضارات وزينة وأموالاً يملكونها تضعف أمام بريقها كثير من

القلوب، فتتهاوى أمام الجاه والسلطان ، لأن وجود النعمة في أيدي المفسدين ينشأ عنها إضلال الناس وإفسادهم إما بالإغراء أو بالتهديد.

ولقد استجاب الله دعوة نبيه موسى التي قضّت مضاجعهم ونغّصت حياتهم وأخرجتهم من النعمة والترف كما قال تعالى: { وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ } .

الدروس المستفادة من دعوةِ موسى عليه السلام :

هذا باختصار شديد، قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها عدد من الدروس والوقفات المهمة:

أولاً: أن نور الله مهما حاول المجرمون طمس معالمه، وأن الطغاة وإن أثّروا في عقول الدهماء فترة من الزمن واستمالوهم بالمنح والعطايا فإن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، تأملوا في حال فرعون وسحرته، وكم وُعدوا لقاء مواجهتهم موسى، ومع ذلك انقلبوا فجأة عليه، واستهانوا بما وَعد به حين أبصروا دلائل الإيمان، ولاذوا بحمى الملك الديان، فكانوا أول النهار سحرة، وآخره شهداء بررة .

ثانياً: عاش المسلمون أيام فرعون ظروفاً عصيبة ملؤها الخوف والأذى، ووصل بهم الأمر أن يُسِرّوا بصلاتهم ويتخذوا المساجد في بيوتهم.

وفى ظل هذه الظروف العصيبة أُمر المسلمون بالصبر عليها والاستعانة بالله على تجاوزها بالوسائل التالية: منها:

* **الصبر والصلاة** : (قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا) وقال لهم ولغيرهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) فالصلاة سمة المسلم حين الرخاء وحين الشدة والضراء.

* **الإيمان بالله والتوكل عليه**: ضروري للمسلم في كل حال، وهما في حال الشدة عُدّة (وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ).

* **الدعاء وصدق اللجوء إلى الله**: يصنع أملاً من الضيق، وفيه فرج من الكروب، وخلاص من فتنة الظالمين، ونجاة من الكافرين. (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ).

ومع ذلك فلا بد من الاستقامة على الخير وعدم الاستعجال في حصول المطلوب، فذلك أمر يقدره الله أنى شاء وكيف شاء (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

ثالثاً: إن الصراع مهما امتد أجله، والفتنة مهما استحكمت حلقاتها فإن العاقبة للمتقين. لكن ذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة واستعانة بالله صادقة:

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

أجل، فلا ينبغي أن يخالج قلوب المؤمنين أدنى شك بوعد الله، ولا ينبغي أن يساورهم القلق وهم يصبرون على الضراء، ولا ينبغي أن يخدعهم أو يغرهم تقلب الذين كفروا في البلاد فيظنوه إلى الأبد، وما هو إلا متاع قليل، ثم يكون الفرج والنصر المبين بإذن الله.

رابعاً: لما خرج موسى عليه السلام من مدينته وهو خائف يترقب، بعد أن عَلِم عِلم اليقين أن القوم يبحثون عنه، وقد عقدوا مؤتمرهم للقضاء عليه، وجاءه الناصح بذلك الخبر، شد عزمه، وخرج من مأزره، وطلب من ربه أمرين عظيمين:

الأول: طلبه النجاة من الظالمين: (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

الثاني: طلبه أن يرشده ويهديه إلى الطريق المستقيم: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

إن اللجوء إلى الله تعالى في حالة السراء والضراء هو المطلوب، لأن الله سبحانه هو مسبب الأسباب، ومقدر الأمور، وبيده مقاليد كل شيء.

خامساً: إن من يرتكب خطيئةً مهما كانت فإنه يصبح ضعيف الموقف، خائف النفس، وهذا يؤخذ من موقف موسى عليه السلام لما اقترف تلك الخطيئة وهي قتل القبطي، فأصبح خائفاً من أن ينكشف أمره لأولئك القوم الذين يتربصون به، فكم حاولوا قتله والتخلص منه، فكيف وقد وقع منه ما يسئ إليهم؟ فعلى العاقل أن يصون نفسه من الوقوع في الزلات، حتى يكون عزيز الجانب، مطمئن النفس وإن ظُلِم كما حصل لنبي الله يوسف عليه السلام.

سادساً: لقد سبق في علم الله تعالى الأزلي أن فرعون لا يؤمن، ومع ذلك أمر عبديه ونبييه موسى وهارون عليهما السلام أن يذهبا إليه ويترفقا به في الحوار والنقاش لعله يتذكر أو يخشى، كل ذلك من أجل أن يرسما طريقاً في الدعوة إلى الله تعالى لمن يأتي بعدهما، من إلانة في القول، وترفق بالآخر، والصبر على المعاناة في الطريق من القريب والبعيد، والصديق والعدو، والأخذ بالأسباب، وعدم اليأس أو القنوط، فإن القلوب علمها عند الله تعالى يصرفها ويقلبها كيف يشاء.

سابعاً: إن الحق قد ينتصر بجهد الضعفاء قبل جهد الأقوياء، فلا يحقرن الإنسان أيّ جهد يقوم به، فإن مؤمن آل فرعون، وأخت موسى، وأم موسى، وآسية امرأة فرعون، كانوا ضعفاء، ومع ذلك قاموا بأدوار عظام في نصرة الحق.

****

دعوة عيسى عليه السلام

اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى.

من صفاته الخُلقية

لا شك أن أبرز ما اتصف به (عليه السلام) صفة النبوة، بل هو من أولي العزم من الرسل، ولاشك أن الأنبياء وهبهم الله من حميد الخصال، وكريم الفعال، ما يفوقون به غيرهم من البشر، ومما ورد من صفات عيسى (عليه السلام) ما يلي:-

١- البركة كما في قوله سبحانه وتعالى: (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(فالبركة جعلها الله من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله .

٢- البر بوالدته، كما في قوله سبحانه وتعالى(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) ليس بفظ ولا غليظ، ولا يصدر منه قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته.

٣- الوجاهة في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى:) وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) .

٤- أنه من الصالحين، كما في قوله سبحانه وتعالى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا* وَمِنَ الصَّالِحِينَ) يكلم الناس في المهد آية، ويكلمهم كهلا بالوحي والرسالة. وهو من الصالحين في قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح .

٥- اللين والرحمة، يدل عليه قوله في شأن قومه :{ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

٦- شدة تعظيم الله سبحانه وتعالى في قلبه، وهذا الذي دعاه أن يُصدِّق الحالف ويُكذِّب عينه، كما في صحيح البخاري قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ((رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق، فقال له أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله، وكذبت عيني .

رفعه إلى السماء

لما تآمر أعداء الله من اليهود على قتل عيسى (عليه السلام) والخلاص منه ومن دعوته، نجاه الله سبحانه وتعالى منهم ورد كيدهم في نحورهم فرفعه إليه حياً ببدنه وروحه، ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ( ).

نزوله في آخر الزمان

وسينزل في آخر الزمان ببدنه وروحه، كما دلت على ذلك السنة، لما في صحيح البخاري : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم، حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد."

الحكمة من نزوله

١- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم.

٢- نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها.

٣- أنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام فيوافق خروج الدجال فيقتله.

٤- تكذيبه لكل من ادعى إلهيته أو بنوته لله تعالى.

٥- إبطال الغلو الذي تمادى فيه أهل الكتاب، كما أخبر الله عنهم بقوله: { يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} .

وسائل وأساليب عيسى (عليه السلام) في دعوته، ما يلي:-

١ - ضرب الأمثال :

ضرب الأمثال أسلوب من أساليب الإيضاح والبيان في الدعوة، إن لم يكن أقواها في إبراز الحقائق المعقولة، في صورة الأمر المحسوس. والغرض من ضرب الأمثال تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيصير غير المحسوس مطابقاً للمحسوس، وذلك هو النهاية في الإيضاح.

٢ - الحكمة في القول

الحكمة: هي الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه. ويمكن القول بأنها عبارة موجزة المبنى جليلة المعنى. والحكمة لها أثر كبير في الدعوة إلى الله، وذلك لجمال ألفاظها، وسمو معانيها، وسهولة حفظها وترديدها.

وكان كلام عيسى ابن مريم (عليه السلام) يجمع البلاغة والإيجاز والوضوح، ولو تأملنا ما حكى الله سبحانه عن عيسى من تلك الكلمات التي نطق بها في المهد حيث يقول: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} .

٣ - الترغيب والترهيب

الترغيب والترهيب أسلوب دعوي يتجاوب مع فطرة الإنسان، من حيث رغبتها في الخير، ونفورها من الشر ورغبتها في السلامة من الضر، في العاجل والآجل، وذلك بتهديدها وتخويفها من حصول ذلك، لتبتعد عن كل ما يكون سبباً في حصول الشر، أو الحرمان من الخير.

٤ - الدعوة بالموعظة

ونجد في دعوة عيسى (عليه السلام) موعظته لقومه بتقوى الله سبحانه وتعالى، وذلك حين طلبوا منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، كما أخبر بذلك المولى سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ( ).

٥ - الدعوة بالقدوة

لقد جعل الله سبحانه وتعالى رسله عليهم الصلاة والسلام قدوة لمدعويهم، بما أعطاهم من صلاح القول والعمل، وحسن الخلق، فإن الله لما ذكر في كتابه جملة من الأنبياء ذكر أنهم أئمة لغيرهم، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ( ). أي رؤساء يقتدى بهم في الخير.

٦ - الدعوة بالدليل والبرهان

وكان عيسى (عليه السلام) عند دعوة قومه إلى الله يُذَكِّرهم بما معه من هذه الآيات، كما قال عنه المولى سبحانه وتعالى: { وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} .

والآيات المذكورة في هذا السياق التي أيد الله بها عيسى (عليه السلام) هي:-

١- الكلام في المهد.

٢- يخلق من الطين طيراً فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

٣- أنه يبرئ الأكمه، والأكمه قيل في معناه: إنه الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً وقيل بالعكس وقيل: الأعشى وقيل: الأعمش وقيل: هو الذي يولد أعمى وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي.( )

٤- يبرئ الأبرص.

٥- يحيي الموتى بإذن الله. وقد ورد تكرار (بإذن الله) في الآية دفعاً لتوهم الألوهية، لأن إحياء الموتى ليس من جنس أفعال البشر.

٦- الإنباء بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون، وذلك أنهم لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما ندخر للغد، فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله "وأنبئكم" الآية .

٧- نزول المائدة.

٣ - اتخاذ الأنصار

لما لم تجد مع تلك الطائفة من اليهود هذه الآيات البينات، ووجد منهم الصد والإعراض، والكفر بالله سبحانه وتعالى، اتخذ عيسى (عليه السلام) وسيلة أخرى في دعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك أن يكون له أعوان منهم، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

٤ - السياحة في الأرض

كان عيسى (عليه السلام)، لا يستقر في مكان واحد، بل كان ينتقل من مكان إلى مكان يدعو الناس، ولذا قال بعض السلف في تفسير قوله تعالى: { اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ } . أي: لكثرة سياحته، وقيل لمسحه الأرض أي سياحته فيها فراراً بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود وافترائهم عليه وعلى أمه .

وكان عيسى (عليه السلام) كذلك يبعث بالرسل وهم الحواريون ليبلغوا الدعوة في أماكن مختلفة، وقد اشتهر عند أهل الكتاب تسمية هؤلاء الحواريين بالرسل.

٥ - إزالة آلة الباطل

ويتمثل هذا في دعوة عيسى (عليه السلام)، فهو يكسر الصليب،ويقتل الخنزير، كما دل عليه حديث نزوله في آخر الزمان، وما يحدث منه عند ذلك، لما في صحيح البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد".

٦ - قتال أعداء الله

كانت دعوة عيسى(عليه السلام) في زمنه لبني إسرائيل دعوة سلمية تقوم على المواعظ والأمثال والزواجر، ولم يرد في النصوص الشرعية ما يدل على قتاله لأعدائه في ذلك الزمان.

وأما في آخر الزمان عندما ينزل إلى الأرض فإنه يقاتل الأعداء وعلى رأسهم المسيح الدجال، فإنه يطلبه حتى يقتله وكذلك يقاتل اليهود والنصارى في ذلك الزمان، ويدعوهم إلى الإسلام، ولا يقبل منهم غيره، ولا يقبل منهم الجزية أيضاً.

الدروس الدعوية المستفادة من دعوة عيسى عليه السلام :

١ - أن يستشعر الداعية عظمة الخالق سبحانه، وأن قدرته لا حدود لها، وأنه إذا أراد اللهُ شيئاً أن يقولَ له كُن فيكون. والذي خلقَ هذا الكون وأبدعه، قادراً على أن يوجِدَ بشراً من غيرِ أمٍ ولا أب. كما هو الحال عند آدمَ عليه السلام، أو بأُمٍ دون أب، كما هو الحال عند عيسى عليه السلام، وهو على كلِ شيءٍ قدير.

٢ - أن يركز الداعية في دعوته على التوحيد، فهو الأساس والعُدة والزادُ الحقيقي، ويُحذِرُ غيرهُ من الوقوعِ في الشرك، وجاءت دعوةُ عيسى عليه السلام لتقِل التوحيد لا شك بذلك، ونبذُ الشرك بشتى صوره وأشكاله.

٣ - على الداعية أن يتحصن بالعلم الذي يساعده ويُعِينُه على القيامِ بأعباءِ الدعوة. كي يدعوا الآخرين على بصيرةٍ وفهمٍ ويقين. يقول الله تعالى: {قُل هذه سبيلي أدعوا إلى اللهِ على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني}. والبصيرة لا شكَ أنها العلم، والدعوةُ بِلا علمٍ قد تُفسد أكثر مما تُصلح، بل هي تفسد أكثر مما تصلح.

٤ - أن يثبت الداعية على مبادئه، وأن يوطن نفسه على الصبر وعلى احتمال الأذى، وعليه أن يتوكل على الله عز وجل، وأن يزيد اليقين في نفسه أن الله عز وجل سيُمكن لعباده وسينصُرهم ويؤيدهم بتأييده.

٥ - أن يكونَ الداعية رحيماً مشفِقاً بالمدعوين، وهذا ما كان من عيسى عليه السلام، حيثُ ظلَ يستنقذ أصحابَ الهوى والشيطان من النهاية التي تنتظرهم إن استمروا في طغيانهم.

٦ - أن يقوم الداعية بتذكيرِ المدعوين بواقعِ اليوم الآخر وعدم التعلق بالدنيا وزُخرفها، فقد بعث عيسى عليه السلام في بني إسرائيل الذين شُغِفُوا بالحياة ونسوا ما ورائَها، وصار يذكرهم بالآخرة و مآل الأمور، وأن العاقبة للمتقين، وأن الله عز وجل يدَخِرُ لهم إن شاء الله بالآخرة ما هو خيرٌ وأبقى من زخرف الدنيا هذا.

٧ - أن يُوقن الداعية الحكيم الحصيف بأن عليه دراسة عالمه الذي يعيش فيه، و أن يدركه حق الإدراك ويتعرف عليه حق المعرفة، حتى يستطيع تقويم المواقف ومعالجة الأمور، وقد كان عيسى

عليه السلام عارفاً بواقعِ بني إسرائيل ومكرهم و خداعهم ، كان ملماً بما عليه حال بني إسرائيل، فكان يعاملهم ويدعوهم بما يتصور أنه يكونُ سبباً في إذعانهم وقبولهم إلى الحق.

****

دعوة محمد صلى الله عليه وسلم:

_ بدأت الدعوة الإسلامية منذ بعثته صلى الله عليه وسلم ، حيث جاءه الوحي ، وأنزل الله عليه قوله: { يا أيها المُدَّثرِّ* قُمْ فَأنْذِرْ* وَرَّبكَ فكَبِّر* وثيابَك فَطَهِّر * والرُجْزَ فاهجُر* ولاَ تْمُننْ تَسْتَكثِر * ولربِّك فاصبِر } .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب من حوله ، فكان أول من أسلم معه من النساء: .زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ومن الرجال : أبو بكر رضي الله عنه ، ومن الصبيان: علي بن أبي طالب ، ومن الرقيق: زيد بن حارثة رضي الله عنه .

ثم تتابع إسلام عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة بن عبدالله ، وأبي عبيدة بن الجراح ، والأرقم ابن الأرقم وغيرهم رضوان الله عليهم جميعاً.

وبدأ المسلمون يجتمعون برسول الله r في دار الأرقم ابن أبي الأرقم يتلقون عنه ما نزل من القرآن ، ويأخذون عنه هدي الإسلام العظيم ، ويرعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية الصالحة والتزكية الطاهرة .

وبعد ثلاث سنوات من هذه الدعوة الفردية السرية نزل قوله تعالى:

{ فاصْدَعْ بما تُؤمَر ، وأَعْرِضْ عن المشركين }.

فقام صلى الله عليه وسلم يدعو الناس من حوله ، فصعد الصفا ونادى الناس لينذرهم ويبشرهم..

جاء في الحديث المتفق عليه : " عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية:" وأنذر عشيرتك الأقربين" ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعدَ الصفا ، فهتف: يا صَباحاه ، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه فقال :

يا بني فلان : يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب ، فاجتمعوا إليه ، فقال:" أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرينا عليك كذباً قال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قال : فقال أبو لهب : تبا لك أما جَمَعتنا إلا لهذا ، ثم قال: فنزلت هذه السورة: { تبت يدا أبي لهب وتب } وقد تَبَّ

وعندما بدأت مرحلة الجهر هذه ، قابله قومه بالعداء الشديد ، فانطلقت أول صيحة عداء تجاهه من عمه أبي لهب بقوله" تبا لك ، أما جمعتنا إلا لهذا" كما مر معنا في الحديث السابق ، ثم تتابع العذاب على رسول اللهr وأصحابه الكرام ، ولولا أن هيأ الله له عمه أبا طالب ليدافع عنه ويحميه من قومه ، لأصحابه ما أصاب عدداً من أصحابه: كياسر ، وعمار ، وسمية وبلال ، وعامر بن فهيرة وغيرهم رضوان اله عليهم ، فصبروا جميعاً أمام أشد أنواع العذاب والتنكيل ، ولم يسلم رسول الله r من ذلك في بعض الأحيان .

ولما اشتد على المسلمين الأمر ، وَجَّه رسول الله r أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، وقال لهم: " لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.. " .

واستمرت الشدة ، حتى هم قومه صلى الله عليه و سلم بقتله ، فبلغ ذلك عَمَّه أبا طالب ، فجمع بني هاشم وبني عبدالمطلب وأدخلوا رسول الله r في شِعْبهم ليحفظوه من القتل ، وأخذوا يتناوبون على حراسته r .

فغضبت لذلك قريش ، فاجتمع بعض زعمائهما وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً على بني هاشم وبني عبدالمطلب يُجْمعون فيه على مقاطعة رسول الله r ومن معه في الشعب مقاطعة اجتماعية واقتصادية ، حتى يخضعوا ويُسلموا لهم رسولَ الله r ، وعَلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم وبنو عبدالمطلب مسلمهم وكافرهم إلى أبي طالب ، ودخلوا معه الشعب وأقاموا فيه سنتين أو ثلاث ، حتى أصابهم الجهد الشديد ، ثم يَسَّرَ الله بعض الرجال للسعي في نقض هذه الصحيفة ، وحَلّ هذه الشدة .. " .

ثم زاد الأمر شدة على رسول الله r لما مات أبو طالب ، وتبعته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بعد أيام ، وكان عام الحزن...

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف ، فردوه شر رَدٍّ ، وحرضوا عليه وآذوه ، فرجع إلى مكة مُسْتَضْعَفاً ...

وبقي الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه على هذا الحال من الشدة ثلاثة عشر عاماً حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة ، وهيأ لهم فيه الأسباب..

وتمت الهجرة ، وبدأت في المدينة المنورة مرحلةٌ جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية ، حيث قوي المسلمون بمن دخل في الإسلام ، وبمن ناصرهم في المدينة المنورة ، فقامت لهم دولتهم ، وأذن الله لهم بقتال عدوهم بعد أن كان يأمرهم في مكة بكف أيديهم ، وبالصبر والمصابرة...

وكان أول إعلان رسمي لشعائر العبادة في المدينة ، ببناء" مسجد قباء" والصلاة فيه ، ثم ببناء" مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم " .

وبدأت الخطوات العملية لإقامة أول دولة إسلامية على وجه الأرض ، وذلك على أسس ثابتة متينة من الأخوة الإسلامية الصادقة ، والنظام الواضح ، والدستور البيّن ، وعلى الأرض الطيبة ، " المدينة المنورة" وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الوثيقة التاريخية التي وضحت العلاقة بين المسلمين: المهاجرين والأنصار من جهة ، وبين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة من جهة أخرى . فاكتملت للمسلمين بذلك الأركان الأساسية للدولة .

وبدأ العمل بعد ذلك على عدة محاور:

١- نشر الدعوة الإسلامية بين الناس ، وتعليم المسلمين أمور دينهم ، والعمل على تربيتهم وتزكيتهم على هدي الإسلام.

٢- مواجهة الأعداء وإعلان الحرب على الكافرين المحاربين ، والعمل على التخلص منهم..

٣- تطبيق الأحكام الشرعية على جميع المستويات الفردية والجماعية ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- التخطيط لتوسيع رقعة الدولة المسلمة ، ونشر رسالة الإسلام ، عن طريق إرسال الرسل والبعثات ، واستقبال الوفود ، ومكاتبة الزعماء والحكام ، وتجهيز الجيوش. ..

وقد ملئت كتب السيرة والسنة بتفصيلات هذه الأعمال ، فتحدثت عن أعمال التبليغ ونشر الدعوة ، والاهتمام بالعلم والتعليم.. كما عرضت غزوات الرسول r وسراياه الكثيرة التي وصل عددها إلى/٢٧/غزوة ، و/ ٣٨/ سرية وبعث. وتحدثت عن تجهيزات الجيوش وتوجيهها إلى أنحاء الجزيرة وخارجها .

كما عرضت كُتُبَ النبي صلى الله عليه وسلم ورسائله التي بلغت أكثر من خمسين كتاباً ، حتى أفردها بعضهم في كتب خاصة.

كما ذكرت رُسُلَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى الآفاق دعاةً معلمين ، وعاملين في الصدقات..

وذكرت الوفود التي وفدت على رسول الله r في المدينة حتى زاد عددها عن خمسة عشر وفداً ، وسميت سنة تسع من الهجرة" بسنة الوفود" لكثرة ما وفد فيها من وفود.

وهكذا مَرّ موكب الدعوة الإسلامية في زمنه صلى الله عليه وسلم حتى وافى رسولَ الله rالأجل، ولحق بالرفيق الأعلى بعد أن بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، فجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

خاتمة في الملامح العامة للدعوة في زمنة صلى الله عليه وسلم :

أ – الملامح العامة في العهد المكي:

١- الاهتمام بتبليغ الدعوة ، ونشرها سراً وجهراً ، بدءاً بالأقرب فالأقرب ، إنقاذا للناس من الضلالة إلى الهدى ، وإخراجا لهم من الظلمات إلى النور.

٢- الاهتمام بتربية من استجاب للدعوة ، والعمل على تزكيتهم وتربيتهم على هدي الإسلام ، لبناء قاعدة إسلامية صلبة للدولة المسلمة ، وذلك عن طريق:

أ- تعليمهم دينهم.

ب- وتطبيق الإسلام في حياتهم.

ج- وتعميق معاني الأخوة فيما بينهم.

د- والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

٣- الحرص على عدم المواجهة للأعداء بالقوة والاكتفاء بمواجهتهم بجهاد الدعوة ، قال تعالى:{ وجاهِدْهُم به جِهَاداً كبيراً} ، وذلك على الرغم من أذى الأعداء، واستفزازاتهم المتكررة للمؤمنين ، موازنةً بين الإمكانات والواجبات ، وتَرْكِ المواجهة بالقوة إلى مرحلة مناسبة أخرى ، بل وصل الأمر إلى أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض صحابته بالاستعجال في الأمور ، عندما شكوا إليه مالا يلاقون ، وطلبوا أن يدعو الله لهم بالفرج ، ففي الحديث الشريف:

" عن أبي عبدالله خَبَاب بن الأَرتِّ t قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متوسد بُرْدَةً له في ظل الكعبة ، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا ، ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يُخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيُجعلُ فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضَعُ على رأسه ، فيجعل نِصفين ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دونَ لحمه وعظمه ، ما يَصدهُ ذلك عن دينه. والله لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله ، والذئبَ على غنمه ، ولكِنَّكُم تستعجلون".

٤- الحركة بالدعوة ، وعدم الجمود بها على مكان نشأتها ، فقد توجه صلى الله عليه وسلم نحو الطائف ، ثم هاجر إلى المدينة المنورة عندما استعصت عليه مكة المكرمة .

٥- استمرار العمل والتخطيط لمستقبل الدعوة ، كما فعل صلى الله عليه وسلم فأرسل الرسل إلى المدينة المنورة ، وأخذ البيعة من أهل العقبة ، وأمر بالهجرة وخطط لها ، ثم نفذ كل ذلك تنفيذاً دقيقاً.. وذلك أخذاً بالأسباب ، وموازنة بين الأخذ بها وبين الاتكال على الله والاعتماد عليه وحده .

ب – الملامح العامة في العهد المدني:

١- الاهتمام بمتابعة عملية التبليغ للدعوة ، والتربية والتزكية للمستجبين لها ، وذلك عن طريق تلاوة آيات القرآن على الناس ، وتزكيتهم ، وتعليمهم الكتاب والحكمة ، والاهتمام ببناء المساجد وإعمارها ، وعقد الأخوة الخاصة بين المهاجرين والأنصار ، وتوثيق الصلات بينهم ....

٢- الحرص على إقامة الدولة المسلمة عند اكتمال أركانها الثلاثة :

" أ- القاعدة الصلبة من المؤمنين . ب – والأرض الملائمة ، ج – والنظام الواضح " ،

لأنها أكبر دعامة للدعوة ، وأهم مؤسسة رسمية من مؤسساتها ، قال تعالى: { الذين إِنْ مَكَّنّاهم في الأرض ، أَقاموا الصلاة ، وآتَوا الزكاة ، وأمَروا بالمعروف ، ونَهَوا عن المنكر ، ولله عاقِبةُ الأمور} .

٣- الاهتمام بتطبيق الأحكام الشرعية على جميع المستويات الفردية والجماعية ، من إقامة الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الحدود ، والفصل بين الخصومات ، إقامةً الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الحدود ، والفصل بين الخصومات ، إقامةً لحكم الله في الأرض من جهة ، وتقديما للنموذج الإسلامي الكامل ، الصالح لكل زمان ومكان ، من جهة أخرى .

٤- مهادنة الأعداء المهادنين والمجاورين ، ومعايشتهم في ضوء نظام واضح يضبط العلاقات ، ويُطلعهم على محاسن الحياة الإسلامية ، ويعكس لهم الصورة الصحيحة المشرقة لها من جهة ، ويدعم استقرار الدولة المسلمة في نشأتها من جهة أخرى.

٥- مجابهة الأعداء المحاربين ، وإرهاب المتربَصين في الداخل والخارج عن طريق السرايا والغزوات ، والإعداد المتواصل لذلك ، قال تعالى: { وأَعِدَوا لهم ما استطعْتُم من قُوَّة ، ومن رِباطِ الخيل تُرهبونَ به عدوَّ الله وعدوكُم ، ولآخَرين من دونهم لا تَعْلَمونَهم ، الله يَعْلَمُهم ، وما تُنْفِقوا من شئ في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون.. } .

٦- تحقيق عالَميّة الدعوة الإسلامية عن طريق الانطلاق بها في أكثر من اتجاه ، وعلى أكثر من صعيد ، عن طريق كتابة الرسائل ، وإرسال الرسل ، وبعث البعوث ، واستقبال الوفود ، وما إلى ذلك..

إلى غير ذلك من ملامح كثيرة يمكن أن يقف عليها المتمعن في سير الدعوة في العهد المدني.

****

مسئولية التبليغ، و من هم المكلفين بالتبليغ (الحكام ، العلماء ، كل من علم أمرا من أمور الدين)

منذ حصل الانحراف في البشرية عن عقيدة التوحيد في قوم نوح - والله سبحانه يرسل الرسل لدعوة الخلق إلى التوحيد والإيمان كما قال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

وبين مهمتهم في قوله تعالى : رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، يُنَـزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ .

ولما كانت هذه الأمة المحمدية وارثة الرسالات والكتب السماوية بما جعل الله نبيها خاتم الرسل ومبعوثا للناس كافة ، وجعل كتابها المهيمن على الكتب وجعلها وارثة هذا الكتاب العظيم ،، فإنها يجب عليها نحو البشرية أكثر مما يجب على غيرها ممن سبقها من الأمم لما أعطاها الله من الإمكانيات العظيمة التي لم تعطها أمة غيرها ، بل هي المسئولة الوحيدة عن القيام بدعوة البشرية وتبليغها دعوة الله ، كما قال تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

وقال تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

وقد كلف الله رسول هذه الأمة محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة البشرية كلها .

قال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ) .

وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) .

وقد كلفت هذه الأمة بما كلف به رسولها صلى الله عليه وسلم من القيام بدعوة البشرية إلى الله عز وجل قال تعالى : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) .

فبَيَّن - سبحانه - أنَّ أَتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هُم الدعاة إلى الله ، وهُم أهل البصائر ، والواجب كما هو معلوم هو اتِّباعه ، والسَّيْر على مِنهاجه -عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)

وصرَّح العلماء أنَّ الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فرضُ كِفاية بالنِّسبة إلى الأقطار التي يقُوم فيها الدعاة ، فإنَّ كلّ قُطْر وكلّ إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها ، فهي فَرْض كِفاية إذا قام بها مَنْ يَكْفي سَقَط عن الباقِينَ ذلك الواجب ، وصارت الدعوة في حَقِّ الباقِينَ سُنَّة مُؤَكَّدة ، وعَمَلا صالحا جليلا .

وإذا لم يَقُم أهْل الإقليم ، أو أَهْل القُطْر المعَيَّن بالدعوة على التَّمام ، صار الإثمُ عامًّا ، وصار الواجبُ على الجميع ، وعلى كلّ إنسان أن يَقُوم بالدعوة حَسَب طاقتِه وإمكانه ، أَمَّا بالنظرِ إلى عمومِ البلاد ، فالواجبُ أنْ يُوجَد طائفة مُنْتَصِبة تقُوم بالدعوة إلى الله جَلَّ وعَلا في أرجاء المعمورة ، تُبَلِّغ رسالات الله ، وتُبيِّن أمْرَ الله عَزَّ وَجَلَّ بالطُّرق الممكِنة ، فإنَّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- قَدْ بعث الدعاة ، وأَرْسَل الكُتُب إلى الناس ، وإلى الملوك والرؤساء ودعاهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ .

وفي وقتنا اليوم قد يَسَّر الله عَزَّ وَجَلَّ أَمْر الدعوةِ أكثرَ بطُرُق لم تَحْصُل لِمَن قَبْلنا ، فأمور الدعوة اليوم متيسَّرة أكثر من طرق كثيرة ، وإقامة الحجة على الناس اليوم مُمْكِنة بطُرُق متنوِّعة

فالواجب على أهل العلم والإيمان ، وعلى خلفاء الرسول أنْ يَقُوموا بهذا الواجب ، وأنْ يَتَكاتَفُوا فيه ، وأنْ يُبَلِّغوا رسالات الله إلى عِباد الله ، ولا يَخشَوْا في الله لَوْمة لائم ، ولا يُحابُوا في ذلك كبيرا ولا صغيرا ولا غنيا ولا فقيرا ، بل يُبَلِّغون أمْر الله إلى عِباد الله كما أَنْزل الله وكما شَرَع الله .

وقد يكُون ذلك فَرْض عَيْن إذا كنتَ في مكان ليس فيه مَن يُؤَدِّي ذلك سِواك ، كالأمْر بالمعروف والنهي عَنِ المُنْكَر ، فإنه يكُون فَرْض عَيْن ، ويكُون فَرْض كفاية ، فإذا كنتَ في مكان ليس فيه مَن يَقْوَى على هذا الأمْر ، ويُبَلِّغ أَمْر الله سِواك ، فالواجب عليك أنتَ أنْ تَقُوم بذلك ، فَأمَّا إذا وُجِد مَن يَقُوم بالدعوة والتبليغ والأمْر والنَّهْي غيْرك ، فإنه يكُون حينئذ في حقِّك سُنَّة ، وإذا بادرْتَ إليه وحرصْتَ عليه كنتَ بذلك مُنافسا في الخيرات ، وسَابقا إلى الطاعات .

قال الحافظُ ابْنُ كَثِير عند هذه الآية وجماعةٌ ؛ ما معناه: وَلْتَكُنْ منكم أُمة مُنتصِبة لهذا الأمْر العظيم ، تَدْعو إلى الله ، وتَنشُر دِينه ، وتُبلِّغ أمْره سبحانه وتعالى ، ومعلوم أيضا أنَّ الرسول -عليه الصلاة والسلام- دعا إلى الله ، وقام بأمْر الله في مكة حَسَب طاقته ، وقام الصحابةُ كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم بذلك حَسَب طاقتهم ، ثُم لَمَّا هاجَروا قاموا بالدعوة أكثرَ وأبْلَغ ، ولَمَّا انتَشروا في البلاد بَعْد وفاته -عليه الصلاة والسلام- قاموا بذلك أيضا -رضي الله عنهم وأَرْضَاهم- كلّ على قَدْر طاقته وعلى قَدْر عِلْمِه ، فعِند قِلَّة الدعاة ، وعند كثرةِ المُنْكَرات ، وعند غَلَبة الجهلِ - كَحالِنا اليومَ - تكُون الدعوة فَرْض عَيْن على كلّ واحد بِحَسَبِ طاقته ، وإذا كان في مَحَلٍّ محدود كقرية ومدينة ونحوِ ذلك ، ووُجِد فيها مَنْ تَوَلَّى هذا الأمرَ ، وقام به وبَلَّغ أمْر الله كَفَى ، وصار التبليغُ في حقِّ غَيْره سُنَّة ؛ لأنه قد أُقيمت الحُجَّة على يَدِ غيره ونَفَذَ أمْر الله على يَدِ سِواه .

ولَكِنْ بالنِّسبة إلى بَقِيَّة أرضِ الله ، وإلى بَقِيَّة الناس ، يَجِبُ على العلماءِ حَسَب طاقتِهم ، وعلى وُلاةِ الأمْرِ حَسَب طاقتِهِم ، أنْ يُبَلِّغوا أمْرَ الله بِكُلِّ ما يستطيعون ، وهذا فَرْض عَيْن عليه على حَسَبِ الطاقةِ والْقُدْرة .

وبهذا يُعْلم أنَّ كَوْنها فَرْض عَيْن ، وَكَوْنها فَرْض كفاية أمْر نِسْبِيٌّ يَختلِف ، فقد تكُون الدعوة فَرْض عَيْن بالنِّسبة إلى أقوام وإلى أشخاص ، وَسُنَّة بالنِّسبة إلى أشخاصٍ وإلى أقوامٍ ؛ لِأنَّه وُجد في مَحَلِّهم وفي مكانهم مَن قام بالأمْر وكَفَى عنهم .

المكلفين بالتبليغ :

- **وُلاة الأمور :**
- ومَن لهُم القدرة الواسعة ، فعليهم مِن الواجب أكثر ، وعليهم أنْ يُبَلِّغوا الدعوة إلى ما استطاعوا مِن الأقطار ، حَسَب الإمكان بالطرق الممكِنَة ، وباللغات الحَيَّة التي يَنْطِقُ بها الناس ، يَجِب أنْ يُبَلِّغوا أمْر الله بتلك اللغات حتى يصل دِين الله إلى كلّ أحد باللغة التي يَعْرفها .

- كما أنه يجب على الخطباء في الاحتفالات ، وفي الجُمَع ، وفي غير ذلك أنْ يُبَلِّغوا ما استطاعوا مِن أمْر الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأنْ يَنْشُروا دِين الله حَسَب طاقتهم ، وحَسَب عِلْمهم ؛ ونَظَرًا إلى انتشار الدعوة إلى المبادئ الهَدّامة وإلى الإلحادِ ، وإنكارِ رَب العِباد ، وإنكار الرسالات ، وإنكار الآخرة ، وانتشارِ الدعوة النصرانيةِ في الكثير مِن البُلْدان ، وغيرِ ذلك مِن الدعَواتِ المُضَلِّلة - نظرا إلى هذا فإنَّ الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ اليوم أصبحتْ فَرْضا عامًّا ، وواجبا على جميع العلماء ، وعلى جميع الحُكّام الذين يَدِينون بالإسلام ، لِأنَّ أعداء الله قد تكاتفوا وتعاونوا بكل وسيلة للصَّدِّ عن سبيل الله ، والتشكيك في دِينه ، ودعوة الناس إلى ما يُخْرِجهم مِن دِين الله عَزَّ

وَجَلَّ ، فوَجب على أهل الإسلام أن يُقابلوا هذا النشاط المُضِل ، وهذا النشاط الملحِد بنشاط إسلاميٍّ ، وبدعوة إسلاميَّة على شَتَّى المستويات ، وبجميعِ الوسائلِ وبجميع الطُّرُق المُمكِنة ، وهذا مِن باب أداءِ ما أَوجب الله على عِباده مِن الدعوة إلى سبيلِه .

- هل يستطيع العامي أن يدعو ؟
- الجواب يستطيع أن يدعو فيما يعلمه بشرط ألا يزيد عن علمه ، وألا يثبت حكما شرعيا بلا بينة ، وبينة العامي سؤال العلماء قال تعالى : " فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون " .

* * **********

مكانة الإنسان في الإسلام

جعل الله تعالى للإنسان مكانة كبيرة في هذا الكون و ميزه على سائر الكائنات والموجودات

فقد نوه القرآن الكريم بشأنه وأشار إلى رفعة منزلته وعلو قدره، فقد خلقه الله عز وجل بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، واستخلفه في الأرض ليقوم بعمارتها إصلاحها، وأعانه على أداء دوره في هذا الوجود بما زوده من أدوات العلم والمعرفة، وأوحى إليه برسالته، وشرع له من التكاليف ما يسمو بإنسانيته، ويرقى بآدميته، ويصون كرامته، ويعظم حرماته ، ولكن كثيرا من الناس حاد عن الفطرة السليمة عندما كرمه الله بل وتكبر وعاند.

وليس الإنسان كائنا أرضيا بحتا كما يصفه الماديون وإنما هو كائن يمتزج في كيانه عنصران، فهو قبضه من طين ، ونفخه من روح الله عز وجل، قال الله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

وتمثل قبضة الطين فيه : (جسده) ومتطلبات هذا الجسد الطبيعة، وألوان نشاطه المادي.

وتمثل النفخة من روح الله في الإنسان : (روحه) ومظاهر هذه الروح من وعي وإدراك، وإرادة واختيار.

والعنصران ممتزجان مترابطان يتكون منهما كيان موحد يصدر عنه النشاط الإنساني جسديا كان أم روحيا، ولا يصدر أحدهما عن عنصره منفصلا عن الآخر أو مستقلا عنه.

وأي إشباع لجانب منهما على حساب الآخر يعد خللا في النفس الإنسانية يأباه الدين.

وعندما يتحدث الله عز وجل عن مكانة آدم يعني الإنسان بجميع أفراده ومختلف فئاته وأجناسه وأجياله على امتداد التاريخ. هم مكرمون بدءً من أصلهم الأوّل وهو آدم عليه السّلام.

ومن أنواع التكريم الإنساني في الإسلام :

١ - التأكيد المكثف على حقوق الإنسان فقد ضمن له حقوقا بالغة الأهمية وواسعة النطاق ، فقد ضمن الإسلام للإنسان حق الحياة وحق العمل وحق العيش بأمان وحق التعليم وحق الحرية وحق

التملك وغيرها من الحقوق ، وأقام الإسلام مادة حقوقية للإنسان فاقت في الإتقان والانضباط والتوازن والعدل والحيوية الحقوق التي تضمنها المنظمات الحقوقية الأخرى .

٢ - ومن أعظم أنواع التكريم أن الله تعالى جعل الإنسان محلا للتكليف وموضعا للقيام بأعظم مهمة في الوجود وهي العبودية لله تعالى ، وما يترتب عليها من إرسال الرسل والأنبياء وانزال الوحى الإلهي على البشر ومخاطبته لهم و وما ينال أصحاب الإيمان والتقوى من الخيرات في الدنيا و الآخرة ، وأعظمها النظر إلى وجهه الكريم والفوز بلقائه.

٣ - التأكيد على أن الكون مسخر للإنسان ، وأنه مهيأ ليكون منسجما مع متطلبات الإنسان ، وقد تكرر التنبيه على هذه الكرامة في مواطن عدة ، منها قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]

٤ - أمر الله عز و جل ملائكته بإكرام وتعظيم الإنسان:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)

٥ - أن الله تعالى جعل الإنسان خليفته على الأرض، وبذلك امتاز الإنسان على بقية المخلوقات.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

٦ إن للإنسان كرامة ذاتية مستمدة من أصل الخلقة الإلهية له، وذلك لقوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

٧ عبّر الكثير من الآيات الكريمة بصراحة عن كون الإنسان كائناً له القدرة على الإدراك والفهم والتحقق والوعي والشعور، وبتعابير مختلفة، كالإبصار والسمع والتعقل والشعور والشهود، فظاهرة الإدراك في الإنسان ثابتة وأساسية تميزه عن سائر الكائنات . و لهذا كثير من الآيات تدعوا الإنسان إلى التفكر و التعقل ، قال تعالى :

(يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ -)

(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

****

مسئولية الإنسان في الكتاب والسنة في الجزاء ، والتبعية في النتائج

علاقة الجزاء بالمسؤولية :

يعد الجزاء النتيجة المترتبة على قيام الإنسان بمسؤولياته أو مخالفته لها. وحدد القرآن الجزاء بقدر المسؤولية مع إيثار جانب الرحمة والعفو ومضاعفة الحسنة .

فعندما يوجه الله تعالى إلينا أمره فهو يلزمنا، فإن استجبنا وخضعنا لأمره ولبينا نداءه، نكون قد تحملنا مسؤوليتنا التي يترتب عليها الجزاء الحسن. وإن كان موقفنا أمام نداء الله تعالى وأمره ومخاطباته لنا التمرد والعصيان والمخالفة، ترتب على ذلك الجزاء السيئ، فالمطيع لأمر الله تعالى والقائم برعايته يجزيه الله تعالى ثوابا حسنا، والعاصي لأمر الله تعالى المخالف لطاعته يعاقبه الله بالعقاب الأليم.

وبذلك يتبين أن الجزاء أمر مرتب على المسؤولية وسبب ناشئ منها. فالمسؤولية والجزاء معناهما متلازمان تتداخل حقائقهما وتتآلف معالمهما لما بينها من علاقة وثيقة، الأمر الذي يجعل كل من يتناول موضوع المسؤولية بالحديث لا بد أن يتناول الجزاء المرتب عليها، لأن التلازم بينها ثابت لا ينفصل.

وهكذا فإن الله تعالى قد ربط المسببات بالأسباب ربطاً محكماً، ومنها الجزاءات على اختلاف أنواعها، لتكون عاقبة للأعمال، لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا بثواب أو عقاب، وذلك ليقوم الناس بالعدل، وتتهيأ نفوسهم للتكليف والسؤال، وتتحقق العبودية لله تعالى، ويوفى كل نصيبه غير منقوص.

الجزاء لغة:

الجزاء مصدر، ترجع مادته إلى الجيم والزاي والياء: جزي، ويدور استعماله على معان ، وردت في القرآن الكريم .

معاني الجزاء في القرآن الكريم:

ورد الجزاء في القرآن الكريم على ستة أوجه على جميع المعاني اللغوية المتقدمة:

الأول: بمعنى المكافأة والمقابلة، قال تعالى: (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى). أي تقابل.

الثاني: بمعنى الأداء والقضاء: يقول الله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا) أي لا تقضى ولا تؤدى.

الثالث: بمعنى الكفاية، قال تعالى: (وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)[.

الرابع: بمعنى العوض والبدل، قال تعالى: (فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ).

الخامس: بمعنى ثواب الخير والشر. قال تعالى: (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

السادس: بمعنى الجزية وهي الخراج الذي يؤخذ من أهل الذمة وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم، قال تعالى: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ).

ومما يلاحظ أنه لم يرد في القرآن الكريم إلا جزى دون جازى وذلك أن المجازاة هي المكافأة وهي المقابلة من كل واحد من الرجلين والمكافأة هي مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها ونعمة الله تعالى ليست من ذلك ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في الله عز وجل.

الجزاء اصطلاحاً:

ومن كل ما تقدم نعلم أن الجزاء يندرج تحت أمرين: الثواب والعقاب.

ويقصد بالثواب: ما يرجع إلى الإنسان من خير أو شر جزاء على عمله، ويكثر استعماله فيما يرجع من خير، ومنه قوله تعالى: (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ) .

ويقصد بالعقاب: ما يجازى به الإنسان من عذاب على فعل السوء، ويختص بالعذاب، ومنه قوله تعالى: (إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) .

التعريف المختار:

إذاً الجزاء ينقسم بحسب النوع إلى ثواب وعقاب، وأن الثواب هو الجزاء الحسن على فعل الحسنات وترك السيئات. وأن العقاب هو الجزاء السيء على التفريط في فعل الحسنات واقتراف السيئات والجزاء بنوعية ثواباً وعقاباً يشمل كل جزاء يترتب على فعل الإنسان في كل وقت.

و عليه فإن العمل بأيّة مسؤولية والقيام بمهامها على أكمل وجه سيؤدّي إلى واحدة أو أكثر من النتائج التالية :

١ . إنّ الأخذ بمبدأ المسؤولية يفتح باب الحرِّيّة بطريقة منظمة لا تعدِّي فيها ولا ظلم وبالتالي فإن من شأن المسؤوليات أن تغلق الباب بوجه الفوضى والانحراف .

٢ . انّها تفتح الآفاق واسعة على مجالات الخير كلّه فليس هناك حد محدود للاستزادة من الخير في المسؤوليات كلّها .

٣ . المسؤولية توجه نشاط الإنسان وتجعله ذا موقف وإرادة وتقرير للمصير أي أنّ الإنسان المسئول يتحول بتحمله لأعباء المسؤولية إلى إنسان هادف لا ينطلق ولا يتحرّك إلاّ نحو هدف مرصود .

٤ . إحداث حالة من التطابق بين الأفكار وبين السلوك فما يحمله الشاب المسلم من نظرة أو رؤية عن أيّة مسؤولية يتبلور ويتجسد من خلال ما تفرضه تلك المسؤولية من التزامات يهب الشاب للقيام بها كما ينبغي فلا تناقض ولا ازدواجية .

٥ . المسؤولية الإسلامية لا هويّة جغرافية لها فمساحتها العالم كلّه صحيح أنّ الأقربين أولى بالمعروف لكنّنا مسئولون عن الإصلاح في الأرض كلّها ولو اقتصرت المسؤولية على حدود الوطن والأمّة لما شهدنا انتشار الإسلام في بقاع الأرض وأرجاء الدنيا .

٦ . إنّ المسؤولية بما تفرض من روح الالتزام تقلص وتحجم دوائر الانحراف والجريمة والتهاون والخيانة والذلّة وكل أشكال السقوط والتواكل والكسل والتبعية فالإنسان المسئول يراعي متطلبات دوره في حركته في الحياة فينضبط وينتظم من خلالها .

٧ . المسؤولية في الإسلام تخلق حالة من الانسجام بين إرادة الله تبارك وتعالى وبين ارادة العبد المسلم فلا تكون هناك إرادتان ، إنّما هي إرادة واحدة الله يطلب والعبد يستجيب ويمتثل بمضيه لإرادة الله ويحققها في الأرض مما يقدم صورة ناصعة عن كونه خليفة صالحاً : (إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون)

٨. النماذج الإيجابية الناهضة بمسؤولياتها على ما يرام تعمل كأدوات محرضة أو محفزة على الاحتذاء والتأسي من قبل المتقاعسين والمتساقطين أو المتخففين من أعبائها.

٩ . إن منظومة المسؤوليات الإسلامية تتكفل بإصلاح الحياة وتغيير ما فسد منها من أفكار وعواطف وعلاقات ومواقف وأخلاق ولا يكون ذلك إلاّ من خلال الفرد المسئول والمجتمع المسئول .

١٠ . بقدر تحمل أعباء المسؤولية في الدنيا تتحدّد مستويات الثواب والعقاب في الآخرة ، الأمر الذي يجعل إمكانية الحصول على مزيد من الثواب مفتوحة لكل راغب في ازدياد .

الاهتمام بالآخرين بالقدوة والدعوة :

في هذه المرحلة من الزمن وقد بدت آثار الصحوة الحقة تبهت في مجتمعنا المسلم، قد تضاعفت حاجة المسلمين في مختلف أوساطهم وطبقاتهم إلى قدوات وريادات تكون أنموذجاً واقعياً ومثالاً حياً يرون الناس فيهم معاني الدين الصحيح علماً وعملاً، قولاً وفعلاً، فيقبلون عليهم وينجذبون إليهم؛ لأنَّ التأثير بالأفعال والأحوال أبلغ وأشدّ من التأثير بالكلام وحده، وقد قيل: شاهد الحال أقوى من شاهد المقال.

ويشهد لأهمية ذلك أنَّ الله جلَّ وعلا جعل نبيه صلى الله عليه وسلم أسوة لمن بعده: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..}،

كما أمره أن يقتدي بمن سبق من الأنبياء: { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}..

و عاتب سبحانه و تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم علي عدم اهتمامه بابن ام مكتوم، " عَبَسَ وَتَوَلَّى. "

وجعل الإسلام الاهتمام بالأخرين حقاً للمسلم على أخيه المسلم ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم:

" حق المسلم على المسلم خمس رد السلام و عيادة المريض و اتباع الجنائز و إجابة الدعوة و تشميت العاطس"

و كان نبينا صلى الله عليه وسلم و هو الأسوة الحسنة إذا كلمه أحد التفت إليه جميعاً.... أي بوجهه وجسمه....

جاءه مرة ابو بكر بأبيه يقوده قبل إسلامه إبان فتح مكة، فلما رآه رسول الله صلي الله عليه وسلم قال له: " هلا تركت الشيخ في بيته حتي آتيه"، فقال: يمشي هو إليك أحق من أن تمشي إليه.

دخل المسجد أعرابي يتخطى الصفوف ورسول الله فوق المنبر يخطب في الناس، صاح الاعرابي قائلاً يا رسول الله .... رجل لا يدري ما دينه! فعلمه دينه...

فنزل النبي صلي الله عليه وسلم من منبره.... وتوجه إلي الرجل وطلب كرسياً فجلس عليه ثم جعل يتحدث إلى الرجل ويشرح له الدين إلي أن فهم.... ثم عاد إلي منبره.

.... كان صلى الله عليه وسلم ذلك دأبه في الناس جميعاً الصغير والكبير.... حتي مع الاطفال كان يسلم عليهم ويمازحهم ويقدرهم عليه الصلاة والسلام ويلقي السلام عليهم....

ورأس الأمر في القدوة والأسوة الحسنة أن ندعو الناس بأفعالنا مع أقوالنا، يقول عبدالواحد بن زياد: "ما بلغ الحسن البصري إلى ما بلغ إلا لكونه إذا أمر الناس بشيء يكون أسبقهم إليه، وإذا نهاهم عن شيء يكون أبعدهم عنه". ولما نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه وقال: "إني اتخذت خاتماً من ذهب" فنبذه وقال: "إني لن ألبسه أبداً" فنبذ الناس خواتمهم فدلَّ ذلك على أنَّ الفعل أبلغ من القول.

ونحن في هذه الفترة العصيبة التي تمر على الأمة من الضعف والهزيمة، نحتاج أن نحقق في أنفسنا أنموذج التطبيق الصحيح لهذا الدين؛ لكي يحقق الله لنا النصر والتمكين ونسد على المتربصين أعداء الدين منافذ تسلطهم وسطوتهم باسم الإصلاح وحفظ الحقوق.

فهذا خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما جعله الله إماماً للناس يقتدى به قال: {ومن ذريتي} أخبره الله تعالى أنَّ فيهم عاصياً وظالماً لا يستحق الإمامة، فقال: {لا ينال عهدي الظالمين}

فإذا أردنا أن يحفظ الله لنا ديننا ويستتب أمننا ونردّ كيد أعدائنا، و نحقق مكانتنا في الأرض ، فلنقم هذا الدين علماً وعملاً ومنهجاً لحياتنا وسلوكنا.

إذ إن المسلم القدوة أشد على أعداء الدين من كل عدة، ولذلك لما تمنى الناس ذهباً ينفقونه في سبيل الله، كانت مقولة عمر بن الخطاب: "ولكني أتمنى رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله". فعسى إن كنا على مستوى حسن الأسوة والتأسي أن يمكن لنا في الأرض وأن يجعلنا أئمة ويجعلنا الوارثين.

الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الدعاة:

الصفـــات الفطريـــــة:

١. الذكاء:

إن الذكاء والفطنة والحذق صفة أساسية للعاملين في مجال الدعوة، فلا غنى عنها،فإن توافرت هذه الصفة عند الداعية -لا شك- سوف يعينه على استكمال بقية الصفات في شخصيته، ولا شك أنها ستساعده في عمله الدعوي، فكثيرا ما يتعرض الداعية_ وهو في ميدان الدعوة إلى اللـه_ للنقاش والتساؤلات والاعتراضات والمواقف المحرجة التي تستدعي سرعة البديهة وحسن التخلّص، فإن لم يكن ذكياً، فطناً، ولبيباً صاحب حجة، ويفحم الآخرين ويبهتهم ويردّ عليهم اعتراضهم بدليل أقوى من دليلهم، وحجة أوضح من حجتهم فسوف يجد نفسه في مأزق حرج ويعرض دعوته للفشل أو السخرية،

وخير أسوة لنا في هذا رسولنا الكريم صلى اللـه عليه وسلم، فتكاد لا تخلو جميع مواقف حياته من الذكاء والحكمة في علاج ما تداهمه من معضلات الأمور

ومن ذلك حسن تصرفه صلى اللـه عليه وسلم حين خرج مع من شهد غزوة أحد لتتبع فلول المشركين، وكانت النتيجة لهذا التصرف_ الذي لا يمكن أن يخرج إلا من رجل يتمتع بوافر الذكاء والفطنة_ بأن

دبّ الرعب والخوف في قلوب المشركين، عندما وصل إليهم خبر تتبع الرسول صلى اللـه عليه وسلم آثارهم، فما كان من شأنهم إلا أن قفلوا راجعين إلى مكة ولم يتصدوا للرسول صلى اللـه عليه وسلم وهو قد خرج مع صحبه الكرام من غزوة أحد منهوكي القوى، فكان تصرفاً ناجحاً منه عليه وسلم كي يظهر للمشركين الذين بيتوا الكرّة عليه، أنه ما زال قوياً وما زال جيش المسلمين بخير.

٢. الشجاعة:

" الشجاعة أن تكون شجاعاً عظيم الاحتمال، وأفضل الشجاعة الصراحة في الحق، وكتمان السر، والاعتراف بالخطأ، والانصاف من النفس، وملكها عند الغضب"

لذلك ينبغي أن يربّى الداعية على الشجاعة، وأن يتمرن عليها، وأن يطبع نفسه بها، فلا يخشى إلا اللـه، ولا يضع في جعبته إلا أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه اللـه عليه.

٣.القوة:

فالدعوة لا بد لها من قوة تحميها، والحق حتى ينتصر لا بد له من سواعد قوية تحمله وتدفع به الباطل..

وأما القوة الفكرية: فتندرج تحتها قوى كثيرة، منها قوة التحمل، وقوة الإدراك، وقوة الصبر، وقوة العلم وقوة التلقي وغيرها من القوى.

وهناك حقيقة كبيرة ينبغي على الدعاة أن يضعوها نصب أعينهم، ألا وهي قوة اللـه التي لا تضاهيها قوة في الوجود، فهي القوة وما عداها فهو واهٍ وضئيل وهزيل مهما أوتي من وسائل البطش والقوة والتنكيل، فهي بمثابة خيوط العنكبوت.

٤.الحياء:

من المعاني والصفات الرائعة التي يتصف بها النبلاء والشرفاء من الناس، فالحياء شعبة من شعب الإيمان، وهو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي و الوقوع في الآثام كما أمرته الشريعة الإسلامية الغرّاء ، وأفضل الحياء.. الحياء من اللـه.

٥. الصبر:

على الداعية أن يصبر في كل أمور حياته، فصبره على الطاعة يكون بالمحافظة عليها دوما والإخلاص فيها، ووقوعها على مقتضى الشرع، ومما يعين على تحصيله المعرفة باللـه وحقه على العباد، وحسن الجزاء للمطيعين، فالصبر على الطاعة شديد على النفس لأنها بطبعها تنفر من العبودية ولذلك لا بد من مجاهدة النفس والصبر عليها.

أما الصبر عن المعصية فمن أشد أنواع الصبر، ويحتاج إلى عزيمة وجلد، فالصبر على المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة والتي إذا ما أضيفت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند اللـه تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعهما، ولذلك لا بد للداعية من الصبر عن معاصي اللسان من غيبة ونميمة وكذب ومراء وثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وغيرها.. والصبر عن الشهوات، فقد زين للناس حب الشهوات، ولذلك استؤثر بالداعية تركها لأجل اللـه تعالى، وأكثر ما يعينه على ذلك استحضار الخوف من عذاب اللـه، وأعلى من هذا استحضار الحياء من اللـه والمحبة له، مع استحضار ثمرة هذا الصبر وهي إبقاء الإيمان وتقويته وإنمائه لأن المعصية تنقص الإيمان أو تضعفه أو تكدره أو تذهب نوره وبهاءه.

وآخر أنواع الصبر، الصبر على الابتلاءات، ومنه الكثير في حياة الداعية، فهو صبر مع الذين يدعون ربهم، صبر على التفلت.. فيتم النصح، ويكون التوجيه.

٦.الحلم:

صفة الحلم قلّ من يحوزها، فهي هبة من اللـه يهبها لمن يشاء من عباده، ولكن لا مانع أن يتربى عليها الداعية، ويربّي غيره عليها، فيعود نفسه على ترك الغضب، فالشخص الغضوب إذا استطير وراء لهب الغيظ أفسد في غيبة وعيه، وغلبة عاطفته، فلم يدع لإصلاحها مكان.

٧. الجاذبية الفطرية:

هي الملامح والصفات الجسمية الخالية من العيوب، سليمة الأعضاء والحواس، هي الأدب في الحديث والقوة في التعبير، والرزانة في النقاش، وهي اللين في المعاملة من غير ذلة، وهي القوة في الحق من غير تكبر، وهي الشخصية الجذابة المطمئنة المستقرة الواثقة الهادئة، وهي اللباقة والحكمة والوضوح المجرد من الهوى في عرض الحق، وهي الذكاء والكياسة والنباهة والمرونة وخفة الروح وتحمل الأعباء.

الصفـــات المكتـسـبـة:

١. العناية باللغة العربية:

لا بد للداعية أن يعتني باللغة العربية عناية فائقة، وألا يستسلم للهجات العامية، ولا يكون استعماله للعامية إلا حيث يتعذر التبليغ بغيرها، كعلاج مؤقت يسارع إلى العدول عنه في أول فرصة.

٢.الصدق:

ربّى الرسول صلى اللـه عليه وسلم صحابته الأكارم على هذه الصفة الفاضلة، التي أكدها اللـه تعالى على رسوله صلى اللـه عليه وسلم بالآيات الآمرة للمؤمنين بالصدق، قال تعالى:" يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللـه وكونوا مع الصادقين" التوبة ١١٩

وحقيقة الصدق حصول الشيء وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه، أما صدق القول فمعناه نطق اللسان بالحق والصواب فلا ينطق بالباطل أي باطل كان. ويكون الصدق في الأعمال بأن تكون أعمال الداعية وفق المناهج الشرعية والتابعة لرسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم

والداعية المسلم عليه أن يصدق في دعوته، وفي أسلوبه وفي مخاطبته للناس، ولا يهاب أحدا ولا يخشى في اللـه لومة لائم، ولا همزة همّاز ولا لمزة لمّاز.

٣.الكرم:

على الداعية وعلى كل العاملين في صفوف التصدي للباطل أن يكون كل واحد منهم جواداً كريماً، باذلاً نفسه ووقته وماله في سبيل اللـه كما رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، كان عليه السلام أجود الناس، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وسيرته العطرة حافلة بالكرم النبوي، ولقد استطاع عليه السلام أن يربي صحابته على هذه الصفة الفاضلة.

٤.الرحمة:

لا بد للداعية أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس وإرادة الخير لهم والنصح لهم. ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، لأن في هذه الدعوة نجاتهم من النار وفوزهم برضوان اللـه تعالى. إنه يحب لهم ما يحب لنفسه، وأعظم ما يحبه لنفسه الإيمان والهدى، فهو يحب ذلك لهم أيضاً. والداعية الرحيم لا يكف عن دعوته ولا يسأم من الرد والإعراض لأنه يعلم خطورة عاقبة العصاة، وأن إعراضهم بسبب جهلهم، فهو لا ينفك عن إقناعهم وإرشادهم.

٥.ضبط النفس والابتعاد عن التهور:

من الصفات المكتسبة التي ينبغي على العاملين في صفوف الدعوة الاتصاف بها والتحلي بها: ضبط النفس، والابتعاد عن التهور والانفعال، اللذان يؤديان إلى عاقبة غير مرضية، ونتائج محرجة.

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الدعوي إلى كثير من الجدال والتحدي والأذى، فما عليه إلا أن يتحلى بالصبر وضبط النفس، لأن طريق الدعوة محفوف بالمخاطر ومليء بالصعوبات، طويـل يحتاج إلى الصبر والتحمل حتى الوصول إلى النهاية.

وينبغي على من سار على درب السلف الصالح أن يقابلوا النظرات العابسة بأخرى باسمة ضاحكة، ويقابلوا التهجم والغضب والاستفزاز بالهدوء وضبط النفس، وسعة الصدر، وتنظيف القلب.

٦. التقوى:

على الداعية أن يشمر النفس كي لا تقع في المهالك والمزالق فالتقوى هي شدة الحذر والخوف من قيوم السماوات والأرض، وما يعتري الإنسان من انحراف وضعف وإسراف على النفس وتفريط في حق اللـه، ما يعود إلا على ضعف الإيمان، وإلى ضعف معنى تقوى اللـه في النفوس، قال تعالى:" وهو معكم أين ما كنتم" سورة الحديد(٤) هذه الآية ينبغي ألا تغيب عن قلب كل مؤمن.

فيجدر با الداعية أن يتصرف في حياته متصوراً أن اللـه مطلع على ظاهره وباطنه، عالم بهواجسه، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، فإذا كان ديدنه هذا التصور المتصل باللـه فسيكون بلا ريب ممن لا يعصي اللـه ولا رسوله ولا يخالف أوامره ولا يعمل بنواهيه، لأنه يعلم أن لديه مراقبة من اللـه عليه.

فحري بالداعية أن يلزم هذه المراقبة في سره وعلنه، وأن يستشعر رجوعه إلى اللـه تعالى والمثول بين يديه، في يوم تشخص فيه الأبصار وتشيب من هوله الولدان.

٧. الإرادة القوية:

ومما يجب أن يتحلى به الداعية أيضاً، قوة الإرادة، فالداعية إذا كان ضعيف الإرادة، لا يستطيع أن يكمل نفسه، فكيف يكمل غيره، وإنما قلنا أن الإرادة لازمة للداعية، لأن عليه أن يأخذ نفسه بالعزائم من الأمور، وهل يمكن ذلك إلا إذا كان قوي الإرادة؟!.

٨. حسن المخالطة وحلاوة اللسان:

إن من أهم الصفات الواجب توافرها عند الداعية حسن المخالطة، فلا بد له – وهو في ميدان الدعوة_ أن يصطدم بصخورٍ من أفكار المتغطرسين وآراء المتكبرين وسيعلنون الحرب الشعواء على دعوته وفكره ويحاولون في مجالسهم العامة أن يتظاهروا بالآراء الجديدة والأفكار الخاصة التي يستقوها من أفكار الغرب، ويلقون التّهم جزافاً على الإسلام والمسلمين ويدعون أن الإسلام يتنافى مع مدنيتهم واتجاهاتهم وبعد كل هذا يحاولون الحديث معه في لبّ الموضوع فيجرحون دعوته ويلصقون بها الأباطيل ويتحدونه.

فمن الخير له أن يعتمد إلى الحكمة وحسن المخاطبة وعظمة المحادثة بالأسلوب الحلو الممزوج بالتعاليم الدينية السمحة، وعليه أن يحذر أن يثور أو أن يغضب أمامهم، وما عليه إلا أن يناقشهم بالحكمة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن، وأن يستمع لكلامهم حتى النهاية ثم يعرض بضاعته وهي غالية الثمن، فلا تقوم بالمال ولا تقدر بذهب أو جوهر فهي أعظم من كل ذلك وأعز.

٩. المحبة:

من أهم مميزات الداعية محبته لله تعالى، والمحبة والبغض لأجله لا لشيء آخر، فحبه سبحانه لا يكون مجردا من العمل، فمن كان حبه لله دون عمل فهو حب كاذب، لأن اللـه يقول:" قل إن كنتم تحبون اللـه فاتبعوني يحببكم اللـه"

فمحبة اللـه تستوجب طاعته وطاعة رسوله في السر والعلن، وبهذا نرى أن إن كان عمله لله ورسوله نابعاً من حبه لهما يجد قبولا عند الناس ورغبة في الإصغاء له والالتفاف حوله.

١٠. الإخلاص:

الإخلاص روح الدين ولباب العبادة وأساس أي داعٍ إلى اللـه، فإذا غاض هذا المعنى أو تضاءل لم يبقَ هنالك ما يستحق الاحترام لا في الدنيا ولا في الآخرة، فهذه الخصلة الراقية من أهم ما على الداعية

التحلي به، فالإخلاص مأمور به كل مسلم ولازم لكل مسلم ولكنه للداعية أوجب وألزم، لذا ينبغي للداعية أن يحرص كل الحرص أن يكون مخلصاً في قوله وفي عمله حتى يرى القبول في الناس والتأثير فيما بدعو اليه - وبمقدار إخلاصه تكون نتائج عمله - على أن إخلاصه لله هو الذي يجعله داعية ولا يرجو من أحد إحسانا وبهذا يكون داعية، وإذا لم يكن كذلك فما أبعد هذه السمة عنه، وما أقربه إلى دعاة السوء.

١١. النظر الثاقب والقدرة على الوصول للقرار:

صفة من الصفات العقلية التي ينبغي على الداعية الاتصاف بها.. صفة النظر الثاقب، وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون أي تردد، ودون أي ريب، وبالرغم من ذلك على الأخ الداعية إذا ما أراد أمراً من أمور الدعوة أن يفكر فيه، وإذا عزم على تنفيذه، يتوكل على اللـه، ثم يبدأ بالتنفيذ، فلا مجال بعد العزم للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأي من جديد، فهذا مآله الفشل والسلبية والتأرجح الذي لا نهاية له. فالأمر رأي وشورى، ثم عزم ومضـــاء، وتوكل على اللـه واللـه يحب المتوكلين .

ولنا قدوة برسولنا الكريم صلى اللـه عليه وسلم، فهو صاحب النظر الثاقب والقرار الحاسم، وصاحب المشورة والعزيمة الصادقة، فلا يكاد يرى فعلا من افعاله إلا وفيه جليل الحكمة وبعد النظر.

وعلى الداعية إلى اللـه أن يتصف بصفة التأمل والنظر الثاقب، لأنه ينظر بنور اللـه، هذا النور الإلهي، إذا حل قلب مؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة، التي يعرف بها الحقائق ويزن بها الأمور ويدرك بها الصعاب .

١٢. معرفة مضمون الدعوة:

نعني بذلك أن يتمكن الداعية تمكنا واضحا في علوم الإسلام – من تفسير وفقه وأصول وتوحيد وأديان ....ـ ليكون على بصيرة، على شرط أن لا تلقن كعلوم جامدة، مناقشة ألفاظ وعبارات لا روح فيها ولا حياة .

ولا يكون الداعية ناجحاً إلا إذا كان عالماً بأهل عصره وعلومهم، ليخاطبهم بما يفهمون وليفهم منهم ما يقولون، وإلا كان كل في وادٍ فلا يلتقيان.

الصفـــــات الحـركـيـــــة:

١. الشعور بالمسؤولية:

الشعور بالمسؤولية أمر لا بد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه، وعليه أن يتحرك في هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية، لأن حياة الداعية هي التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود.

٢.النظام والدقة:

الدقة والنظام والتخطيط كلها وسائل تعين على استخدام الجهود، وتوجيهها توجيها مثمراً في مجال الدعوة وبالتالي تزيد فرص النجاح في تقدم الدعوة إلى الأمام، وبلوغ الداعي هدفه.

فباالنظام تتوحد الصفوف، وتكون كالبناء المرصوص الذي تتعاون لبناته، وتتماسك فيما بينها، بحيث تؤدي كل لبنة دورها، وإلا انهار البنيان، وتساقطت اللبنات.

٣. الاستعداد للبذل والتضحية:

هي صفة البذل والتضحية بالغالي والنفيس، والتي يكمل إيمان الداعية إذا تحلى بها، فهي صفة أهل الجهاد والمنفقين في سبيل اللـه، ولقد حث عليها الإسلام.

٤. القدرة على التعامل مع الناس:

ومن الصفات الحركية اللازمة لكل داعية، القدرة على التعامل مع الناس، فدعوته تفرض عليه أن يكون حكيما بارعا في نقل رأيه إلى نوعيات مختلفة من الناس.

فعلى الداعية الواعي أن يسلك طريق من سبقه في هذ المجال وأن يذلل نفسه للمدعوين ويسلك معهم طريق الحكمة والموعظة الحسنة، حتى يستطيع أن يغير من أخلاقهم ويجعلهم يتجمعون حوله ويأخذون تجارته ويتداولونها بينهم، عندئذ يكون قد فاز بحمر النعم.

٥. التواضع:

هو ذل المؤمن لأخيه المؤمن، وقد كان الرسول صلى اللـه عليه وسلم سيّد المتواضعين، حيث رباه اللـه عز وجل على هذه الصفة الحسنة فمطلوب من الدعاة أن يتصفوا بهذه الصفة الرفيعة، لأن من تواضع لله رفعه اللـه، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا فرق بين فرد أو مسؤول أو أكبر من ذلك.

فليقتدِ الدعاة بالداعي الأول للإسلام، وصاحب الرسالة الخالدة ونبيّ هذه الأمة.. سيّدهم ورسولهم الكريم، الذي أجمع من عاصره ورآه أنه كان متواضعاً، يبدأ أصحابه بالسلام، وإذا مر على الصبية الصغار سلم عليهم، كما يسلم على كبيرهم ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح وإذا أقبل حيث ينتهي بأصحابه المجلس، وكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته ويقول: أنا أولى بحملها. ولم يتكبر عن عمل الأجير والصانع، سواء كان في بناء مسجد المدينة أو الخندق، وكان صلى اللـه عليه وسلم يجيب الحر والعبد والأمة، ويقبل عذر المعتذر، وكان يرفع ثوبه، ويخفض نعله، ويقوم في خدمة أهله، وكان يعقل بعيره، ويأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الفقير، والضعيف والبائس، ويجلس على الأرض وينام على الحصير، وقد يؤثر على جبنه الكريم.

فحريّ با الداعية أن يتخلّق بأخلاقه صلى اللـه عليه وسلم ويسير على هديه، فالداعية المتواضع يوصل الدعوة للناس بأسلوب متواضع، تهوي إليه القلوب وترنو إليه الأبصار.

٦. الاستعلاء والعزة:

ينبغي على المؤمن أن يكون عزيزاً، يستعلي بإيمانه على كل متكبر، فعزته الحقيقية هي عزة الإيمان، عزة الإسلام، عزة الدين والعقيدة.

٧. الجهاد:

الجهاد في سبيل اللـه.. باب من أبواب الجنة وبستان من بساتيناها، وفيه حياة للشعوب وتقوية للأمم الخامدة وإحياء للكسالى الذين لا همّ لهم إلا ضياع الأوقات سدىً وإهمال واجب الوطنية، وفي الجهاد معنى التنبيه والإيقاظ وتحريك المشاعر وهزّ النفوس وتطهير الدنيا من الأشرار والأوغاد، والرجوع إلى اللـه سبحانه وتعالى بعد أن تغافلنا عن طاعته ونسينا تعاليمه وقصرنا في واجباته، والجهاد في الدعوة أنواع، جهاد بالقلم، وجهاد ببذل المال والوقت،

واللـه نسأل أن يجعلنا من عباده الذين اصطفاهم لدعوته، ويثبتنا على الحق ويرزقنا الصبر من أول الطرق إلى نهايته، إنه سميع مجيـــب.

خصائص الدعوة إلى الله

أولا: ربانية المصدر

الدعوة إلى الله مصدرها الله تعالى، فهي مرتبطة به، وهذا ما أضفى عليها قدسية لا نجدها في الدعوات الوثنية والأرضية الأخرى، بل وحتى الدعوات التي تستند إلى كتب سماوية تفتقد إلى هذه القدسية، كالمسيحية المحرفة التي تتبنى عقيدة التثليث.

وارتباط الدعوة بالله عز وجل يبعث الطمأنينة والسكينة في قلب الداعي، فكما يقول ابن عطاء الله السكندري: (من وجد الله فماذا فقد).

ثانيا: عالمية الانتشار

فهي لا تخص جنسا معينا، بل تتوجه إلى كل البشر مصداقا لقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

وهي عالمية من حيث الزمان فهي لا تتوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولا تتعطل أبدا، أما من حيث المكان فهي نور الله الذي يضيء جميع الأرض، لذلك على الدعاة أن يستشعروا مسؤوليتهم في تبليغ الدعوة إلى كل الآفاق.

ثالثا: شمولية المنهاج

فهو يستوعب كل شرائح المجتمع: العالمين والجاهلين، والأغنياء والفقراء، والمؤمنين والكافرين... وهذا المنهاج يخاطب كل شريحة مع مراعاة خصوصياتها حتى تكون الدعوة على بصيرة وفهم وعلم ودراية وبالتالي تكون ناجحة، قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

رابعا: مراعاة واقع المدعوين

الدعوة واقعية تأخذ بعين الاعتبار ظروف المدعوين الاجتماعية والثقافية وطبيعة مشاكلهم...، لذا على الداعي أن يكون واقعيا في تعامله معهم.

خامسا: ايجابية النظرة

أ- الكون : وهي نظرة إعمار واكتشاف، فهذا الكون- الذي خُلِقنا فيه - يسير وفق نواميس أودعها الله فيه لابد من اكتشافها، ومن ثم العمل بمقتضاها للإعمار، فهذه النظرة تخلق في الإنسان حب التأمل وتوحيد الله المبدع في صنيعه فيزداد إيمانا على إيمانه، وعلما بحقيقة خالقه، أليس الله هو القائل:

(...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) سورة فاطر، الآية ٢٨.

ب- الحياة

وهي فترة للعمل فيما ينفع الناس، ولا تقاس بحياة الأفراد، وهذا ما أراد الرسول أن يرسخه في نفوس المؤمنين: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها) [رواه أحمد]، وجسده ذلك الفلاح المسن الذي غرس أشجارا - تثمر بعد سنوات - لما استفسر عن سبب غرسه إياها فقال: (غرسوا فأكلنا، ونحن الآن نغرس ليأكل من يأتي بعدنا).

ج- الإنسان :

هو المخلوق الذي كرمه الله عز وجل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...)

وهو الأساس في قيام الحضارة كما يقول مالك بن نبي لذلك لابد من المحافظة عليه جسدا وروحا كما أمرنا تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) سورة القصص، الآية ٧٧.

ب – نماذج للدعاة من غير الرسل

١ – معاذ بن جبل رضي الله عنه :

عندما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يبايع الأنصار بيعة العقبة الثانية. كان يجلس بين السبعين الذين يتكوّن منهم وفدهم، شاب مشرق الوجه، رائع النظرة، برّاق الثنايا.. يبهر الأبصار بهوئه وسمته. فاذا تحدّث ازدادت الأبصار انبهارا..!!

ذلك كان معاذ بن جبل رضي الله عنه.. رجل من الأنصار، بايع يوم العقبة الثانية، فصار من السابقين الأولين.

شهد بدرًا والمشاهد كلها مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأردفه الرسول وراءه، وشيعه ماشيًا في مخرجه وهو راكب، وبعثه قاضيًا إلى الجند من اليمن بعد غزوة تبوك وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة ليعلِّم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم.

قابله النبي ذات يوم، وقال له: «يا معاذ، إني لأحبك في الله» قال معاذ: وأنا والله يا رسول الله، أحبك في الله. فقال : «أفلا أعلمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». حتى قال عنه النبي : استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل

قال عنه عمر بن الخطاب: "عجزت النساء أن يلدن مثله، ولولاه لهلك عمر". قدمه عمر في الفقه، فقال: "من أراد الفقه؛ فليأت معاذ بن جبل".

فهو دائما جالس والناس حوله.. وهو صموت، لا يتحدث الا على شوق الجالسين الى حديثه..

واذا اختلف الجالسون في أمر، أعادوه الى معاذ ليفصل فيه.. فاذا تكلم، كان كما وصفه أحد معاصريه: " كأنما يخرج من فمه نور ولؤلؤ"..

وكان شبيه عمر بن الخطاب في استنارة عقله، وشجاعة ذكائه. سأله الرسول حين وجهه الى اليمن:

" بما تقضي يا معاذ؟" فأجابه قائلا: " بكتاب الله"..قال الرسول: " فان لم تجد في كتاب الله"..؟ قال : "أقضي بسنة رسوله"..قال الرسول: " فان لم تجد في سنة رسوله"..؟قال معاذ:" أجتهد رأيي، ولا آلوا"..فتهلل وجه الرسول وقال : " الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله".

ومات الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعاذ باليمن منذ وجهه النبي اليها يعلم المسلمين ويفقههم في الدين..

ولعل هذه القدرة على الاجتهاد، والشجاعة في استعمال الذكاء والعقل، هما اللتان مكنتا معاذا من ثرائه الفقهي الذي فاق به أقرانه واخوانه، صار كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام " أعلم الناس بالحلال والحرام".

ويهاجر معاذ الى الشام، حيث يعيش بين أهلها والوافدين عليها معلما وفقيها، فاذا مات أميرها أبو عبيدة الذي كان الصديق الحميم لمعاذ، استخلفه أمير المؤمنين عمر على الشام، ولا يمضي عليه في الامارة سوى بضعة أشهر حتى يلقى ربه مخبتا منيبا..

وكان عمر رضي الله عنه يقول:" لو استخلفت معاذ بن جبل، فسألني ربي: لماذا استخلفته؟ لقلت: سمعت نبيك يقول: ان العلماء اذا حضروا ربهم عز وجل ، كان معاذ بين أيديهم"..

والاستخلاف الذي يعنيه عمر هنا، هو الاستخلاف على المسلمين جميعا، لا على بلد أو ولاية..فلقد سئل عمر قبل موته: لو عهدت الينا..؟ أي اختر خليفتك بنفسك وبايعناك عليه..

لأجاب قائلا: " لو كان معاذ بن جبل حيا، ووليته ثم قدمت على ربي عز وجل، فسألني: من ولّيت على أمة محمد، لقلت: ولّيت عليهم معاذ بن جبل، بعد أن سمعت النبي يقول: معاذ بن جبل امام العلماء يوم القيامة".

أجل لقد أسلم معاذ كل نفسه وكل مصيره لله، فلم يعد يبصر شيئا سواه..ولقد أجاد ابن مسعود وصفه حين قال:

"ان معاذا كان أمّة، قانتا لله حنيفا، ولقد كنا نشبّه معاذا بابراهيم عليه السلام .

وكان معاذ دائب الدعوة الى العلم، والى ذكر الله.. وكان يدعو الناس الى التماس العلم الصحيح النافع ويقول:

" احذروا زيغ الحكيم.. واعرفوا الحق بالحق، فان الحق نورا"..!!

ولعل سبب صمته الكثير كان راجعا الى عملية التأمل والتفكر التي لا تهدأ ولا تكف داخل نفسه.. هذا الذي كان كما قال للرسول: لا يخطو خطوة، ويظن أنه سيتبعها بأخرى.. وذلك من فرط استغراقه في ذكره ربه، واستغراقه في محاسبته نفسه.

ولقد بلغ كل هذه المنزلة في علمه، وفي اجلال المسلمين له، أيام الرسول وبعد مماته، وهو شاب.. فلقد مات معاذ في خلافة عمر في طاعون عمواس بناحية الأردن من الشام سنة ثماني عشرة ولم يجاوز من العمر ثلاثا وثلاثين سنة..!!

وفي اللحظات التي لاقى فيها ربه قال معاذ كلمات عظيمة تكشف عن مؤمن عظيم. فقد كان يحدق في السماء ويقول مناجيا ربه الرحيم:

" الهم اني كنت أخافك، لكنني اليوم أرجوك، اللهم انك تعلم أني لم أكن أحبّ الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار.. ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات، ونيل المزيد من العلم والايمان والطاعة"..

وبسط يمينه كأنه يصافح الموت، وراح في غيبوبته يقول:" مرحبا بالموت..حبيب جاء على فاقه"..

****

٢ - عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم:

صحابي جليل، وابن عم النبي محمد، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير وترجمان القرآن، ولد ببني هاشم قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان النبي محمد دائم الدعاء لابن عباس فدعا أن يملأ الله جوفه علما وأن يجعله صالحا. وكان يدنيه منه وهو طفل ويربّت على كتفه وهو يقول: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".

توفي رسول الله محمد وعمر ابن عباس الصحابي الجليل لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وقد روي له ١٦٦٠ حديثا. كان عبد الله بن عباس الصحابي الجليل مقدما عند عثمان بن عفان، وأبو بكر الصديق، ثم جعله علي بن أبي طالب واليا على البصرة.

كان عمر بن الخطاب يحرص على مشورته في كل أمر كبير، وكان يلقبه بفتى الكهول. وكان إذا ذكره قال: ذاكم كهل الفتيان.

يصفه سعد بن أبي وقاص بهذه الكلمات: " ما رأيت أحدا أحضر فهما، ولا أكبر لبّا، ولا أكثر علما، ولا أوسع حلما من ابن عباس. ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات، وحوله أهل بدر من المهاجرين والأنصار فيتحدث ابن عباس، ولا يجاوز عمر قوله".، فإن هو تكلم قلت أفصح الناس، فإن هو حدث قلت أبلغ الناس.

قال ابن عمر: ابن عباس أعلم الناس بما أنزل على محمد.

يقول عن نفسه:"ان كنت لأسأل عن الأمر الواحد، ثلاثين من أصحاب رسول الله".

علمه ومجالسه:

لغزارة علم ابن عباس الصحابي الجليل، لقب بالبحر إذ أنه لم يتعود أن يسكت عن أمر سُئل عنه، فإن كان الأمر في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله أخبر به، فإن كان من سيرة أحد الصحابة أخبر به، فإن لم يكن في شيء من هؤلاء قدم رأيه فيه، ومن شدة اتقانه فقد قرأ سورة البقرة وفسرها آية آية وحرفا حرفا. لشدة ايمانه أنه لما وقع في عينه الماء أراد أن يتعالج منه فقيل له: إنك تمكث كذا وكذا يوما لا تصلي إلا مضطجعا فكره ذلك.

وقد قال : سلوني عن التفسير فإن ربي وهب لي لسانا سؤولا وقلبا عقولا. سئل ابن عباس يوما: " أنّى أصبت هذا العلم"؟ فأجاب: " بلسان سؤول.. وقلب عقول".. فبلسانه المتسائل دوما، وبعقله الفاحص أبدا، ثم بتواضعه ودماثة خلقه، صار ابن عباس حبر هذه الأمة..

كان تنوّع ثقافته، وشمول معرفته ما يبهر الألباب. فهو الحبر الحاذق الفطن في كل علم.. في تفسير القرآن وتأويله وفي الفقه.. وفي التاريخ.. وفي لغة العرب وآدابهم، ومن ثمّ فقد كان مقصد الباحثين عن المعرفة، يأتيه الناس أفواجا من أقطار الإسلام، ليسمعوا منه، وليتفقهوا عليه.

صفاته:

وكان ابن عباس يمتلك إلى جانب ذاكرته القوية، ذكاء نافذا، وفطنة بالغة.. كانت حجته كضوء الشمس ألقا، ووضوحا، وبهجة.. وهو في حواره ومنطقه، لا يترك خصمه مفعما بالاقتناع وحسب، بل ومفعما بالغبطة من روعة المنطق وفطنة الحوار.. ومع غزارة علمه، ونفاذ حجته، لم يكن يرى في الحوار والمناقشة معركة ذكاء، يزهو فيها بعلمه، ثم بانتصاره على خصمه.. بل كان يراها سبيلا قويما لرؤية الصواب ومعرفته.. لطالما روّع الخوارج بمنطقه الصارم العادل..

محاججته الخوارج:

بعث به الامام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ذات يوم إلى طائفة كبيرة منهم فدار بينه وبينهم حوار رائع وجّه فيه الحديث وساق الحجة بشكل يبهر الألباب.. واستمرّ الحوار بين ابن عباس والخوارج حتى نهض منهم ألفان، معلنين اقتناعهم، ومعلنين خروجهم من خصومة الامام عليّ.

أخلاقه:

لم يكن ابن عباس يمتلك هذه الثروة الكبرى من العلم فحسب. بل كان يمتلك معها ثروة أكبر، من أخلاق العلم وأخلاق العلماء. فهو في جوده وسخائه إمام وعالم. انه ليفيض على الناس من ماله، بنفس السماح الذي يفيض به عليهم. ولقد كان معاصروه يتحدثون عنه فيقولون: "ما رأينا بيتا أكثر طعاما، ولا شرابا، ولا فاكهة، ولا علما من بيت ابن عباس". وهو طاهر القلب، نقيّ النفس، لا يحمل لأحد ضغنا ولا غلا. وهوايته التي لا يشبع منها، هي تمنّيه الخير لكل من يعرف ومن لا يعرف من الناس.

وهو عابد قانت أوّاب، يقوم من الليل، ويصوم من الأيام، ولا تخطئ العين مجرى الدموع تحت خديّه، إذ كان كثير البكاء كلما صلى، وكلما قرأ القرآن، فاذا بلغ في قراءته بعض آيات الزجر والوعيد، وذكر الموت، والبعث علا نشيجه ونحيبه. وهو إلى جانب هذا شجاع، أمين، حصيف..

مواقفه من الخلافات بين المسلمين:

ولقد كان له في الخلاف بين عليّ ومعاوية آراء تدلّ على امتداد فطنته، وسعة حيلته.

وهو يؤثر السلام على الحرب، والرفق على العنف. والمنطق على القسر، عندما همّ الحسين بالخروج إلى العراق إصلاحا للإسلام زيادا، ويزيد، تعلق ابن عباس به واستمات في محاولة منعه. فلما بلغه فيما بعد نبأ استشهاده، أقضّه الحزن عليه، ولزم داره.

في كل خلاف ينشب بين مسلم ومسلم، لم تكن تجد ابن عباس الا حاملا راية السلم، والتفاهم واللين، صحيح أنه خاض المعركة مع الامام عليّ ضد معاوية. ولكنه فعل ذلك لأن المعركة في بدايتها كانت تمثل ردعا لازما لحركة انشقاق رهيبة، تهدد وحدة الدين ووحدة المسلمين.

توفي حَبر هذه الأمة الصحابي عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ بالطائف، رضي الله عنه وأرضاه .

٣ - الإمام أحمد بن حنبل.. نسبه وقبيلته

هو أبو عبد الله أحمد بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني. قال ابن الأثير: "ليس في العرب أعز دارًا، ولا أمنع جارًا، ولا أكثر خلقًا من شيبان". وكان في قبيلة شيبان الكثير من القادة والعلماء والأدباء

والشعراء، فالإمام أحمد عربي أصيل ينتمي إلى هذه القبيلة، وهي قبيلةٌ ربعيةٌ عدنانيةٌ، تلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في نزار بن معد بن عدنان. وكان الإمام أحمد (رحمه الله) رجلاً طوالاً رقيقًا، أسمر اللون، كثير التواضع. وقد وُلِد ببغداد سنةَ ١٦٤هـ/ ٧٨٠م.

نشأ أحمد بن حنبل يتيمًا، و تعلم القرآن في صغره، وتلاه تلاوة جيدة وحفظه عن ظهر قلب، وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره بدأ يطلب العلم، وأخذ يجول ويرحل في سبيل الحديث حتى ذهب إلى الشامات والسواحل والمغرب والجزائر ومكة والمدينة والحجاز واليمن والعراق وفارس وخراسان والجبال والأطراف والثغور، وهذا فقط في مرحلته الأولى من حياته. ولقد التقى الشافعي في أول رحلة من رحلاته الحجازية في الحرم، وأُعجِبَ به، وظلَّ الإمام أحمد أربعين سنة ما يبيت ليلة إلا ويدعو فيها للشافعي. وقد حيل بين أحمد ومالك بن أنس فلم يوفَّق للقائه، وكان يقول: "لقد حُرِمتُ لقاء مالك، فعوَّضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة".

قال أبو داود: "كانت مجالس أحمد مجالس آخرة، لا يُذكر فيها شيء من أمر الدنيا، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قَطُّ".

ثبات الإمام أحمد رغم المحنة

تعرض الإمام إلى محنة عظيمة بسبب دعوة المأمون الفقهاء والمحدثين أن يقولوا بمقالته في خلق القرآن ، فحبس وضرب وتوالى ثلاثة من الخلفاء على ذلك : المأمون ، والمعتصم ، والواثق .

وفي كل مرة كان يزداد إصرارًا، فلما أيسوا منه علَّقوه من عقبيه، وراحوا يضربونه بالسياط، ولم تأخذهم شفقة وهم يتعاقبون على جلد جسد الإمام الواهن بسياطهم الغليظة حتى أغمي عليه، ثم أُطلق سراحه وعاد إلى بيته، ثم مُنع من الاجتماع بالناس في عهد الخليفة الواثق (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤١-٨٤٦م)، لا يخرج من بيته إلا للصلاة، حتى إذا ولي المتوكل الخلافة سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦م)، فمنع القول بخلق القرآن، وردَّ للإمام أحمد اعتباره، فعاد إلى الدرس والتحديث في المسجد.

تلاميذة الإمام أحمد

البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابناه صالح وعبد الله، وشيوخه عبد الرزاق، والحسن بن موسى الأشيب. ومن تلاميذه أيضًا أبو بكر المروزي الفقيه، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو بكر الأثرم، وإبراهيم الحربي، ويحيى بن معين، وغيرهم كثير.

منهج الإمام أحمد العلمي :

اشتُهِرَ الإمام أحمد أنه محدِّث أكثر من أن يشتهر أنه فقيه، مع أنه كان إمامًا في كليهما. ومن شدة ورعه ما كان يأخذ من القياس إلا الواضح وعند الضرورة فقط، وكان لا يكتب إلا القرآن والحديث، من هنا عُرِفَ فقه الإمام أحمد بأنه الفقه بالمأثور؛ فكان لا يفتي في مسألة إلا إن وجد لها من أفتى بها من قبل، صحابيًّا كان أو تابعيًّا أو إمامًا. وإذا وجد للصحابة قولين أو أكثر، اختار واحدًا من هذه الأقوال، وقد لا يترجَّح عنده قول صحابي على الآخر، فيكون للإمام أحمد في هذه المسألة قولان.

وهكذا فقد تميز فقهه أنه في العبادات لا يخرج عن الأثر قيد شعرة، فليس من المعقول عنده أن يعبد أحدٌ ربه بالقياس أو بالرأي؛ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلوا كما رأيتموني أصلي "، وقال في الحج: "خذوا عني مناسككم".

وكان الإمام أحمد شديد الورع فيما يتعلق بالعبادات التي يعتبرها حق لله على عباده، وهذا الحق لا يجوز مطلقًا أن يتساهل أو يتهاون فيه. أما في المعاملات فيتميز فقهه بالسهولة والمرونة والصلاح لكل بيئة وعصر، فقد تمسَّك أحمد بنصوص الشرع التي غلب عليها التيسير لا التعسير.

وكان شديد الورع في الفتاوى، وكان ينهى تلامذته أن يكتبوا عنه الأحاديث، فإذا رأى أحدًا يكتب عنه الفتاوى نهاه، وقال له: "لعلي أطلع فيما بعد على ما لم أطلع عليه من المعلوم فأغيِّر فتواي، فأين أجدك لأخبرك؟!".

وفاة الإمام أحمد رضي الله عنه :

توفي هذا الإمام العظيم ضحوة نهار الجمعة ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين ومائتين ببغداد .

٤ - الإمام ابن قيم الجوزية

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز، الزُّرَعِي الأصل، ثم الدمشقي، الحنبلي، المشهور بابن قَيِّم الجوزية، شمس الدين، أبو عبد الله.

أما شهرته -رحمه الله- بابن قَيِّم الجوزية: فقد أجمعت على هذه الشهرة كل المصادر التي ترجمته، وبها عُرِف بين أهل العلم قديمًا وحديثًا.

وأما عن سبب هذه الشهرة وأصلها: فلأن والده كان قَيِّما على المدرسة (الجوزية) التي كان ابن القَيِّم إمامها. ومع أن وظيفة القِوامة في (المدرسة الجوزية) لم تكن حكرًا على أبي بكر -والد ابن القَيِّم- وحده، بل لا بدّ أن يكون قد تولاها غيره -إما قبله أو بعده- إلا أن الواضح: أن والد ابن القَيِّم كان أشهر من تولى هذا المنصب، فصار هو المراد عندما يقال: (قيم الجوزية)، وغلبت -بالتالي- هذه الشهرة على ابنه، حتى صار لا يُعرف إلا بها، والمشهور الآن بين أهل العلم وطلابه، وأكثر الناس قولهم: (ابن القَيِّم) بحذف المضاف إليه اختصارًا وجعل (ال) عوضًا عنه، وهذا الاختصار لا مانع منه؛ فقد صار هو المقصود عند الإطلاق لشهرته، ومع ذلك ينبغي التنبه من التباسه بغيره والأصل ابن قيم الجوزية.

أخلاق ابن القيم وصفاته الشخصية:

إمام عالم عامل، وداعية مخلص صادق، ومربٍ فاضل، أفنى عمره في محاربة كل شر ورذيلة، والدعوة إلى التخلق بكل خير وفضيلة، فلم يكن ابن القَيِّم -رحمه الله- ممن يتكسبون بدعوتهم، أو يطلبون بها عرضًا زائلاً -كما كان حال البعض في عصره- وإنما كان صاحب رسالة سامية، عاش حياته مبلغًا لها ومنافحًا عنها.

فمن هذه الصفات:

١- حسن العشرة، وكثرة التودد إلى الناس والتَّحَبُّب إليهم، لاسيما أهل الفضل والصلاح منهم، فكان الحافظ ابن كثير -مثلاً- من (أحب الناس إليه) كما حكى هو كذلك.

٢- كَفُّ الأذى عن الخلق، فكان رحمه الله "لا يحسد أحدًا، ولا يؤذيه، ولا يستعيبه، ولا يحقد على أحد"، كما قال ذلك أصحب الناس له ابن كثير رحمه الله.

٣- شِدَّةُ محبته للعلم، وكتابته، ومطالعته، كما وصفه بذلك تلميذه ابن رجب رحمه الله، وكيف لا يكون شديد الحب للعلم، شديد التعلق به، وهو القائل: "النَّهْمَةُ في العلم، وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان، وأوصاف المؤمنين".

٤- جِدُّهُ واجتهاده رحمه الله في تحصيل ما نذر نفسه لتحصيله من هذا العلم الشريف، وإنفاق أيام العمر وسِنِيِّه في ذلك، بحيث وصف بـ "كثرة الطلب ليلاً ونهارًا".

٥- جرأته رحمه الله وصلابته في دين الله، وصدعه بالحق؛ فلم يكن يحابي أحدًا فيما يعتقد أنه الحق، ولا يخشى في الله لومة لائم، مع ما سببه ذلك له من محن وإيذاء كما سيأتي. قال الإمام الشوكاني في وصفه إياه: "... صادعًا بالحق لا يحابي فيه أحدًا".

٦- تجرده رحمه الله في أبحاثه العلمية من كل هوًى نفسي، أو غرض ذاتي شخصي، وإنما كان يبتغي الوصول إلى الحق والصواب، ولو ظهر هذا الحق على لسان غيره.

٧- تَوَاضُعُه وإنكاره لِذاتِهِ، واستصغاره لنفسه وعلمه، من ذلك: ما نجده في أكثر كتبه من تصريحه بقلة بضاعته في هذا الشأن، مع إسناده الصواب في ذلك إلى الله، وأن ذلك من فضله وتوفيقه، وإسناده الخطأ والنقص إلى نفسه، هذا ما يقوله، مع ما عرف عنه من جودة تصانيفه، وكثرة إفاداته، وغزارة علمه رحمه الله.

٨- صَبْرُهُ رحمه الله على الأذى والْمِحَن والابتلاء في ذات الله سبحانه، دون جزع أو ضَجَر، فكم عانى من ألم السجن ومرارة الحبس، فكان يقابل كل ذلك صابرًا محتسبًا، بل "كان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ، فَفُتِح عليه من ذلك خير كثير...".

٩ - عمارة قلبه باليقين بالله والافتقار والعبودية، والاضطرار، والإنابة إلى الله، الثروة الطائلة، والقدح الْمُعَلَّى في جَوِّ العلماء العاملين، الذين هم أهل الله وخاصته، وأن لديه من الأشواق والمحبة التي أخذت بمجامع قلبه -لا على منهج المتصوفة الغلاة، بل على طريق السلف الصالح- ما عمر قلبه بالتعلق بالله في السِّر والعلن، ودوام ذِكْرِهِ، وأن العبادة حَلَّت منه محل الدواء والمعالجة، وترويض النفس".

أهداف ابن القيم النبيلة وآراءه السديدة:

أولاً: الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة، والعمل بهما، والتحاكم إليهما عند التنازع، ونبذ ما يخالف ذلك من الآراء والأقوال.

ثانيًا: الدعوة إلى اتِّباع السنة النبوية الصحيحة النقية، كما جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم والتحذير مما خالط ذلك من البدع الْمُحْدَثَات، التي تَدَيَّنَ بها كثير من الناس، معرضين -في الوقت نفسه- عن الثابت الصحيح من سنته صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: ذمُّ التقليد الأعمى، الذي يحمل المقلد على ترك ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لقول مُقَلَّدِهِ، فلا يرى الحق إلا مع إمامه، ولا يقبل من الدين إلا ما جاء من طريقه.

رابعًا: ذمُّ التعصب المذهبي ومحاربته، وكشف عواره، والتحذير منه.

خامسًا: محاربة الانحراف في العقيدة، والدعوة للرجوع إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة في باب العقيدة: فَهْمًا وسلوكًا ، وذلك أنه قد انتشرت في عصره الأفكار الفلسفية، والمناهج الكلامية، وأدى ذلك إلى ظهور بدع التأويل لنصوص الصفات تأويلاً يُفْضي إلى تحريفها عن معناها، أو تعطيلها عن

مضمونها ونفيها، ولاشكَّ أن ذلك مخالف لما عليه سلف هذه الأمة من: إثبات ما وصف الله - سبحانه - به نفسه، وما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، إثباتًا بلا تشبيه، وتنْزيهه عمَّا نزه عنه نفسه، ونَزَّهه عنه رسوله، تنْزيهًا بلا تعطيل.

سادسًا: تقرير أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة لا يضربُ بعضُهَا بعضًا، وأنها تتفق ولا تفترق، وأنها كلٌّ لا يتجزأ، ولذا فإنه لا ينبغي أخذ بعضها وترك بعضها الآخر، فيأخذ أحدهم ما يناسبه، ويَطَّرِح ما يخالف هواه، بل لابد من تنْزيل كل نص من نصوصها منْزله، وحمله على ما وُضِعَ له.

سابعًا: الحرص على توجيه العلماء والمفتين والمبلغين عن رب العالمين، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أن يكونوا صادقين مخلصين، عالمين عاملين، صادعين بالحق لا يخافون.

مِحَنُ ابن القيم:

تعرَّض ابن القيم لإيذاء واضطهاد وفتن أثناء جهاده لنشر دعوته، وسعيه لإصلاح حال مجتمعه، الذي سيطرت عليه الأفكار الدخيلة، وسادته البدع المتوارثة، ومن ذلك :

١- إنكاره شَدُّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل، ومحنته بسبب ذلك:

من البدع التي سادت المجتمع وقتئذ، وتقرب الناس بها إلى الله: بدعة شَدِّ الرَّحْلِ إلى قبر الخليل إبراهيم عليه السلام، فقام ابن القَيِّم - رحمه الله - في وجه هذه البدعة منكرًا لها، ومبينًا مخالفتها لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهَدْيِه، فما كان من أعدائِه وشانئيه إلا أن قاموا ضِدَّه، وآذوه، ثم حُبِس بسبب ذلك، قال الحافظ الذهبي: "وقد حبس مدة وأوذي لإنكاره شدَّ الرحل إلى قبر الخليل".

وقد ظل ابن القَيِّم محبوسًا مدة، ولم يُفْرَج عنه إلا بعد وفاة شيخه ابن تيمية بشهر؛ ذلك أن ابن تَيْمِيَّة قد توفي في محبسه بالقلعة في العشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ)، (وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أُفرج عن الشيخ الإمام العالم العلامة أبي عبدالله شمس الدين بن قَيِّم الجوزية).

٢- فتواه بجواز السباق بغير مُحَلِّل ومحنته بسبب ذلك:

كان ابن القَيِّم رحمه الله يُفتي بجواز إجراء السباق بين الخيل بغير مُحَلِّل.

وقد أشار ابن حجر إلى محنته هذه، فقال: "وجرت له محن مع القضاة، منها: في ربيع الأول - يعني سنة ٧٤٦هـ - طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير مُحَلِّل، فأنكر عليه وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يُفتي به من ذلك".

قال الشيخ بكر أبو زيد: "وقضية الرجوع محل نظر، فلابد من تثبيت ذلك، وأرجو من الله تعالى أن يمنَّ عليَّ بما يدل على ذلك، نفيًا أو إثباتًا".

قلت: أما كتبه التي بين أيدينا، فليس فيها ما يدل على رجوعه، وبخاصة كتاب (الفروسية)، ولكن ابن كثير يحكي ما شاهده بنفسه من إظهاره الموافقة للجمهور، فهل أظهر ابن القَيِّم ذلك دفعًا للشر عن نفسه دون أن يرجع حقيقة عن رأيه؟ الله أعلم.

والذي يهمنا في هذه القضية: أن ابن القَيِّم - رحمه الله - قد امتحن من القضاة بسببها، وأوذي في سبيل ذلك.

٣- فتواه في مسألة الطلاق الثلاث ومحنته بسبب ذلك:

وقد امتحن ابن القَيِّم مرة أخرى بسبب فتواه بأن الطلاق الثلاث بكلمة واحدة يقع طلقة واحدة، وهو اختيار شيخه ابن تَيْمِيَّة أيضًا.

ويشير ابن كثير إلى ما وقع له بسبب ذلك، فيقول: "وقد كان متصديًا للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وجرت بسببها فُصُولٌ يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره".

فالمقصود أنه رحمه الله ابتلي وأوذي وامتحن بسبب صدعه بالحق، وإعلانه رأيه وما يعتقده دون مجاملة أو خوف من أحد، فرحم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عما قَدَّم خير الجزاء.

وفاة ابن القيم:

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجهاد المتصل لنشر منهج السلف، ومحاربة كثير من الانحرافات التي ابتدعها الخلف، وما لقيه من محن في سبيل ذلك، وبعد أن كَمُلَ له من العمر ستون سنة، توفي هذا الإمام العالم العلامة، وذلك في ليلة الخميس، ثالث عشر من شهر رجب، من سنة إحدى وخمسين وسبعمائة (٧٥١هـ) وقت أذان العشاء.

وقد صُلِّيَ عليه رحمه الله من الغد عقب صلاة الظهر بالجامع الأموي، ثم بجامع جَرَّاح، ولأن ابن القَيِّم رحمه الله كان قائمًا لله بالحق، صادقًا في النصح للخلق فقد "كانت جنازته حافلة رحمه الله، شهدها القضاة والأعيان والصالحون، من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه".

فَرَحِم الله ابن القَيِّم رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام وأهله خيرًا، وأسكنه فسيح جناته، آمين.

٥ - الشيخ محمد بن عبدالوهاب

في بلدة من بلاد نجد تسمى (العيينة) ولد محمد بن عبد الوهاب وشب وترعرع وتعلم دروسه الأولى على علماء بلده من الحنابلة، وسافر إلى المدينة ليتم تعليمه، ثم طوف بعد ذلك في كثير من بلاد العالم الإسلامي؛ وأخيرًا عاد إلى بلده وانقطع عن الناس نحوًا من ثمانية أشهر، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة.

ودعوته الجديدة كانت هي (التوحيد) ذلك أنه رأى أثناء إقامته بالحجاز ورحلاته الكثيرة إلى بلاد العالم الإسلامي أن التوحيد قد دخله كثير من الفساد عن طريق قبور الأولياء التي يحج إليها الناس، وتقدم لها النذور، ويعتقد فيها أنها قادرة على النفع والضر، وهي أضرحة لا عد لها ولا حصر، منتشرة في جميع ربوع البلاد الإسلامية، يشد الناس إليها رحالهم، ويتمسحون بها ويتذللون لها، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه الشيخ وهو التشريع. ذلك أنه رأى الناس والحكومات يهجرون شرع الله ويحتكمون إلى شرائع وقوانين مدنية ما أنزل الله بها من سلطان، فدعا الإمام إلى الاحتكام إلى شرع الله، وإلى فتح باب الاجتهاد الذي كان قد أغلق وكان إغلاقه كما يقول نكبة على المسلمين إذ أضاع شخصيتهم وقدرتهم على الفهم والحكم وجعلهم جامدين مقلدين.

على هذا الأساس بنيت دعوة محمد بن عبد الوهاب وعلى هذا الأساس بنيت جزئيات دعوته وفرعياتها.

فقد دعا إلى رفض البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده. فلا اجتماع لقراءة مولد، ولا احتفاء بزيارة قبر، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ولا إقامة أذكار يغنى فيها ويرقص، ولا محمل يتبرك به

ويتمسح. فكل هذا مخالف للإسلام الصحيح ويجب أن يزول ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى وطهارته ونقائه ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك.

وقد بدأ محمد بن عبدالوهاب دعوته بدعوة قومه برفق ولين ثم أخذ يدعو أمراء الحجاز وعلماء الأقطار الأخرى حاثا لهم على استنهاض الهمم في مكافحة البدع والرجوع إلى صحيح الإسلام.

وكان أسلوبه الهادئ في دعوته من أهم أسباب نجاحها، كما أن من أسباب نجاحها أيضًا وقوف "آل سعود" معه. ذلك أنه عندما اضطهد في بلده "العيينة" اضطر أن يخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود، وهناك عرض دعوته على أميرها محمد ابن سعود فقبلها وتعاهدا على الدين الصحيح ومحاربة البدع ونشر الدعوة في جميع جزيرة العرب.

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركزًا إسلاميًا ممتازًا، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما.

فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي باشا في مصر أن يسير جيوشه لمقاتلة الوهابيين، وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية في جميع الأقطار الإسلامية للنيل منهم ومن دعوتهم وتكفير مبتدعيها، حمل علماء الإسلام عليها حملات منكرة وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها.

اهتم الوهابيون بالناحية الدينية وتقوية العقيدة وبالناحية الخلقية ولذلك حيث اسدوا قلت السرقة والفجور وشرب الخمور وأمن الطريق وما إلى ذلك ولكنهم لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها إلا في دائرة التعليم الديني ولم ينظروا إلى مشكلات المدنية الحاضرة ومطالبها.

ولم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية بل تعدتها إلى غيرها من الأقطار الإسلامية وكان موسم الحج ميدانًا صالحًا وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها، فإذا عادوا إلى بلادهم دعوا إليها. فترى في "زنجبار" مثلا طائفة كبيرة من المسلمين يعتنقون هذا المذهب ويدعون إلى ترك البدع وعدم التقرب للأولياء.

و الحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين